الروضة الخضرا والدرة الزهرا

في كشف معاني

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا

تأليف الشيخ العارف
علي بن عبد الله باراس
نفع الله به آمين
(١٠٢٧ - ١٠٩٤هـ)

اعتنى به
الباحث/ منير بن سالم بن سعد بازهير

راجعه وأشرف عليه
الأستاذ: زيد بن عبدالرحمن بن يحيى

و يليه

التوفيق في آداب الطريق

للإمام الكبير العارف بالله
أحمد بن عطاء الله السكندري
(٦٥٧ - ٧٠٩ هـ)



مركز النور للدراسات والابحاث

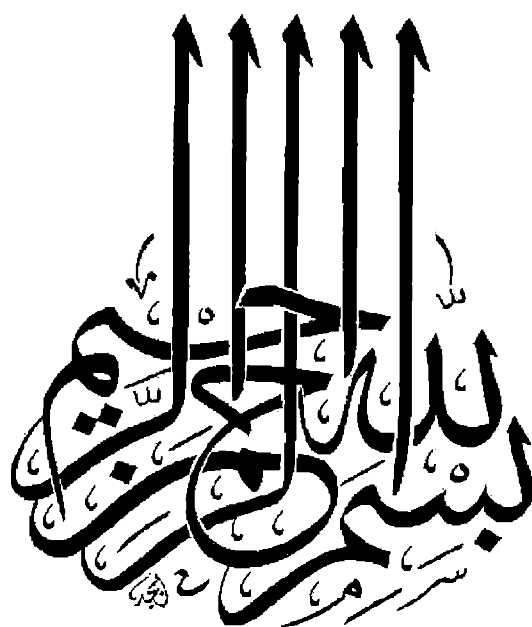
الروضة الخضراء
والدُّرة الزهراء

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

العنوان: الروضة الخضراء والدرة الزهراء في كشف معاني ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء.
المؤلف: الشيخ علي بن عبد الله باراس.
عدد الصفحات: ١٦٧.
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٤سم.
التنيسق والإخراج الفني: مراد بن رمضان صبيح.
تصميم الغلاف: عمر بن محمد باحماله.
التنضيد والمراجعة والإخراج الفني:
مركز النور للدراسات والأبحاث.
تلفاكس: ٠٠٩٦٧٥٤١٩٤٤٢

اليمن - حضرموت - تريم.
التوزيع حصرياً: مكتبة دار الفقيه بدار المصطفى للدراسات الإسلامية بتريم.

جوال: ٠٠٩٦٧٧٧٧٤١٧٥٠٠
جوال: ٠٠٩٦٧٧٣٤٩١١١٧٤
تلفاكس: ٠٠٩٦٧٥٤١٦٩٦٧


بسم الله الرحمن الرحيم

الروضة الخضراء والدرة الزهراء

في كشف معاني

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء

تأليف الشيخ العارف

علي بن عبد الله باراس

نفع الله به آمين

((١٠٢٧ - ١٠٩٤هـ))

اعتنى به

الباحث/ منير بن سالم بن سعد بازهير

راجعه وأشرف عليه

الأستاذ/ زيد بن عبدالرحمن بن يحيى

كلمة المركز

الحمد لله على ما أوضح لعباده من وسائط الدلالة عليه، وسبل الوفادة الحسنة الموجبة للحسنى وزيادة عند الوقوف بين يديه، وصلى الله وسلم وبارك وكرم على عبده المبعوث للخلق داعية إليه، فبذل لأجل ذلك جميع ما أقدره الله عليه، فما فارق هذه الدنيا حتى أبان طرق الهداية وأنار دروبها وفنّد سبل الغواية وكشف جميع مغباتها وعيوبها، وواصل ذاكم التبليغ أصحابه وآله بجد وهمة، فصلى الله عليه وعليهم صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى.

وبعد: فإن الوصول إلى الله والظفر بمحبته مطلب يرغب فيه كل أهل الإيمان والحجا، والرغبة الصادقة في السمو من حضيض الشهوة والاعتلاء، ولكن الله تعالى جعل للوصول إليه سبيلا وطريقا، وجعل الأدلة عليه الأنبياء والرسل ثم وراثهم من العلماء والعارفين والأولياء الصديقين، الذين يخرجون الراغب بصدق من رعونات نفسه، ويهذبونه من شهوات طبعه ورجسه، ويصلونه بربه فيظفر بعد ذلك بحبه وقربه ووده.

والى هؤلاء الشيوخ أشار الإمام الحداد في تائيته بقوله:

ولابد من شيخ تسير بسيره ... إلى الله من أهل النفوس الزكية

من العلماء العارفين بربهم ... فإن لم تجد فالصدق خير مطية

وفي هذا الكتاب المبارك الذي تعانقت فيه أنفاس عارفين كاملين من كمل أهل الصدق والولاية، والذي تمازجت فيه إرشادات مدرستين من مدارس

الخير والهداية، وهما: أنفاس أبي مدين الغوث - رحمه الله تعالى - رائد المدرسة الشعيبية المدينية والعارف علي بن عبد الله باراس - رحمه الله تعالى - ممثل المدرسة العلوية، تلخيص للمعالم الهادية للظفر بتلكم المطالب العالية، الجامعة لأوصاف الشيوخ الكمل وصحيح أحوالهم، وآداب المريدين الصادقين ودقيق صفاتهم، فرسم الكتاب بمحتواه المركّز الطريق التي تعين الطالب للعثور على أشرف مقصد، وقديما قال أهل المعرفة: التصوف: ترك كل حظ للنفس. ومن استولت عليه النفس صار أسيرا في حكم الشهوات، محصورا في سجن الهوى، وحرم الله تعالى على قلبه الفوائد.

فإذا أردت أن تعتلي بنفسك عن صدق وإخلاص نية وهمة فعليك بهذا الكتاب فإنه لك نعم المعين؛ لأنه من مجربات إمام مكين، وعارف متمرس بالمعرفة قمين، وهو لك نعم المرشد إلى عيوب نفسك، والموجه إلى سبل علاجها وتطهيرها، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البيهقي في (الشعب): «**أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل**» فدونك أيها الراغب هذا المنهل الصافي الزلال، المفضي بك إلى حضرات القرب والوصال، والتطواف في عوالم النور والجمال والجلال، المعبر عنها بقول الإمام الحداد - رحمه الله تعالى - في رائيته:

وصف من الأكدار سرك إنه إذا ما صفا أولاك معنى من الفكر
تطوف به غيب العوالم كلها وتسري به في ظلمة الليل إذ يسري

وبقوله في تائيته:

عباد كرام آثروا الله ربهم فآثرهم واختصهم بالولاية
وآنسهم بالقرب منه وبالرضا حباهم وأسقاهم بكأس المودة

ومركز النور للدراسات والأبحاث بتريم كعادته يحب أن يقدم للأمة ما يزيدها نورا وقربا من الخالق للوجود – جلا وعلا – كي يظفروا بقربه وحبه، ويسعدوا برضاه وهدايته وعظيم عنايته، خصوصا في زماننا هذا الذي طغت فيه المادة وطمست أنوار الروح، وأملنا في جميع أعمالنا إعادة الأمة إلى فطرتها وعزها ومجدها من خلال منهج وسط لا إفراط فيه ولا تفريط.

وختاماً لا ننسى تقديم الشكر الجزيل لأسرة الشيخ علي بن عبدالله باراس رحمه الله تعالى على مباركة هذا العمل وإبرازه إلى حيّز الوجود وقد تحدّث نيابة عنهم الشيخ الفاضل حسن بن أحمد باراس فجزاهم الله خير الجزاء على تشجيعهم لنا على إبراز تراث جدّهم وإسهامهم في الدعم المعنوي لإبراز العلم والتراث ومن الله تعالى نستمد المعونة والتوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

مركز النور للدراسات والأبحاث

تريم حضرموت

١٤٣١/٦/١٨هـ



مقدمة المعتني بالكتاب

الحمد لله على ما أبان لعباده من سبل الهداية، وصلى الله وسلم وبارك وكرم على أشرف الدعاة والهداة سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: فلا يزال أهل الإخلاص ينيرون للأمم الدروب بصالح وعظهم وتذكيرهم وخالص فعلهم وتقريرهم على ممر الدهور وتعاقب العصور محتسبين لله في جميع ذلك، باذلين في ذاكم السبيل المهج والأرواح كي يسلكوا بالعباد إلى مسالك الهداية والفلاح والفوز والنجاح.

وإن من أبرز من تميز بحمل هذا الهم وتفرد في إظهار حقائق النصح وطرائق التذكير السادة الصوفية الذين تفننوا في دعوة النفس البشرية إلى حقائق السعادة بالأساليب المختلفة والوسائل المتعددة شعراً ونثراً، حالاً وقالاً.. فانجذبت الأفئدة بسر إخلاصهم ورفقهم إلى سبيل الهداية والسلام وانساقت بلهفة وشوق إلى رياض الجنان ناهلة منها أطيب الزاد إلى دار الكرامة والمعاد باذلة الوسع في التخلص من حجب الدنيا وما يزينها من قبيح الحطام، فظهر في الأمة على امتداد المراحل أقوام تعلقت همومهم بالوصول إلى الله والسير إليه بهمم لا تعرف الالتفات ونفوس تعشق الظفر برضا رب البريات.

وإن من أعظم الآثار التي خلفها رجال تلك الطريق لتوضح للسالكين مناهج السير إلى أعظم رفيق الجوهرة النفيسة التي أبرزها للوجود العارف شيخ الشيوخ الإمام أبي مدين الغوث رضي الله عنه ونفعنا والمسلمين أجمعين بعاطر أنفاسه آمين وذاك في ثنايا القرن السادس الهجري فما أن تسامع بها أهل السلوكِ والإرادة إلا وبادروا إلى حفظها وشرحها والاستضاءة بعميق علمها ودقيق

آدابها فكانت بحق خير مرشد ودليل للسلوك بالسادة الفقراء إلى دار الكرامة والبقاء فتسابق إلى شرحها من أكابر العارفين أئمة كالإمام ابن عطاء الله وابن ع؛ لأن وعبد الغفور النابلسي وأبو عبد الله المكودي وغيرهم ممن سنذكرهم عند حديثنا عن شعر هذا الإمام وخمسها الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي، وجاء عارف آخر من حضرموت اليمن تجمع بينه وبين ناظم تلك الخريدة روح الطريق ووحدة التجربة فكشف رموزها وأبان مضامينها وأظهر مخبئاتها وأسرارها وأطال في بيان معانيها وضمنها من العلوم والمعارف ما صيرها بحق روضة خضراء ودرة زهراء بها يعرف السالك الطريق إلى رب السماء، وذاكم العارف الحضرمي هو الشيخ الكبير علي بن عبد الله باراس رضي الله عنه وأفاض علينا وعلى المسلمين من بركاته وبركات أشياخه آمين.

وقد امتاز شرحه هذا بأنه جمع خلاصة ما سبقه من شروح وأضاف إليها من عنده زيادات استخلصها من كتب القوم التي مارسها وارتضع لبانة أسرارها، كما أنه أودعها قبسات من تجربته الخاصة في السير إلى الله تؤكد للسالك حقائق الظفر بالكنوز الوهبية لمن سار بشوق إلى تلك العوالم الخفية والعلوم الحقية المعبر عنها بقول أبي مدين رضي الله عنه:

فقل للذي ينهى عن الوجد أهله إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا

كما تمتاز بالتوسع في كشف الرموز الصوفية وتقريبها إلى العقول بالكشف عن معانيها اللغوية والذوقية. فقدم بعمله هذا للأمة شرحاً وافياً لمنهج السلوك إلى الله بأسلس عبارة وأوضح أشارة.

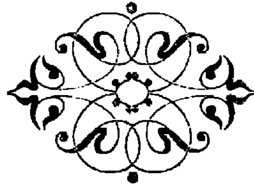
وقد وفقني الله؛ لأنْ أتشرف بخدمتها حسب الاستطاعة والميسور فبذلتُ ما أقدر عليه وهو جهد المقل وأسأل الله أن ينفع بها سائر أهل الإسلام وأن يخصني بمدد من أولئك الرجال الكرام يحسن به أمري في كل خاص منه وعام

وأن يتجاوز عن زلاتي ويتوفاني على كمال الإيمان واليقين وسائر أهل ودادي آمين يا رب العالمين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه العبد الفقير

منير بن سالم بن سعد بازهير

الأربعاء ٥/٦/١٤٣١هـ





توصيف المخطوطات

عند اعتنائي لكتاب (الروضة الخضراء) اعتمدتُ في مقابلته على ثلاثة نسخ خطية وبها زال الغموض الذي وقع في بعض الألفاظ فجاء الكتاب بعد ذلك أقرب إلى الوضوح في معظم عباراته.

وقد رمزت للنسخة التي جعلتها أصلاً في المقابلة بالنسخة (أ) وللأخريات بـ (ب) و (ج) وهذا توصيف النسخ.

النسخة (أ):

نسخة كتبت بخط نسخي جيد من غير ألوان ولا علامات ترقيم أو فواصل، توجد منها صورة بمركز النور للدراسات والأبحاث برقم (١٧٢/ ١) تصوف، جاء في آخرها: اللهم اغفر لعبدك الفقير المعترف بالذنب والتقصير راجي شفاعة جده المختار أحمد بن المرحوم محمد ابن الجد البركة عمر بن طه البار أجاره الله من العار والنار ومن جميع الأشرار آمين بحق رب العالمين وتتكون من (٢٤) ورقة متراصة الكلمات دقيقة الخط، يوجد بالصفحة الواحدة (٢٣) سطراً مساحة كل صفحة (١٧× ٢٣سم) وهي أقل النسخ خطأً وإغلاقاً.

النسخة (ب):

نسخة كتبت بخط نسخي جيد سنة ١٣٠٢هـ بقلم الناسخ محمد بن محمد الجازاني، وصفحاتها مجدولة وكتبت بعض كلماتها بالحمرة وفصلت فقراتها بفواصل دائرية، عدد أوراقها (٤٤) ورقة يوجد ضمن كل صفحة (١٦) سطراً (١٧× ٢٣سم)، توجد هذه النسخة بمكتبة الأحقاف للمخطوطات بمدينة تريم برقم (٣١٠٣) تصوف.

النسخة (ج):

نسخة كتبت بخط نسخي دقيق وحديث لا توجد عليها تملكات ولا اسم للناسخ، وتتكون من (٣٤) ورقة تتضمن كل ورقة (١٩) سطراً مساحة كل صفحة (١٧ × ٢٣سم) توجد منها صورة بمركز النور برقم (١٧٢/ ٢) تصوف والنسختين (ب) و (ج) بهما من الأخطاء والتصحيف الشيء الكثير صححته النسخة (أ).

المنهج الذي اتبعته:

١- كتابة مقدمة توضح وتعرف بمضمون الكتاب وأهميته.

٢- مقابلة المخطوطات على النسخة الأصل وإثبات الفروق الجوهرية والإشارة إليها.

٣- عمل علامات الترقيم من فواصل وغيرها مما يظهر مضمون الكتاب.

٤- عزو الآيات القرآنية إلى سورها من كتاب الله تعالى.

٥- تخريج الأحاديث والآثار النبوية من كتب السنة.

٦- كتابة قصيدة أبي مدين كاملة في مقدمة الشرح.

٧- الترجمة للإمام العارف شعيب أبي مدين رحمه الله تعالى وأشرنا إلى الرابطة بين الطريقة المدينية والعلوية.

٨- الترجمة للإمام العارف علي بن عبد الله باراس شارح القصيدة رحمه الله تعالى وقد بينا فيها نشأته ومراحل حياته وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته وما امتازت به وضمناه مقارنة بين تآليفه وتآليف العلماء في المواضيع المشتركة كـ(شرح الحكم) و(الروضة الخضراء) وأشرنا إلى ملامح تجربته الصوفية.

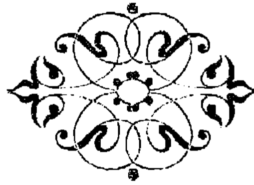
٩- التعليق على الألفاظ الصوفية والعربية المغلقة بتوضيح معانيها من كتب التصوف ومعاجمه وقواميس اللغة.

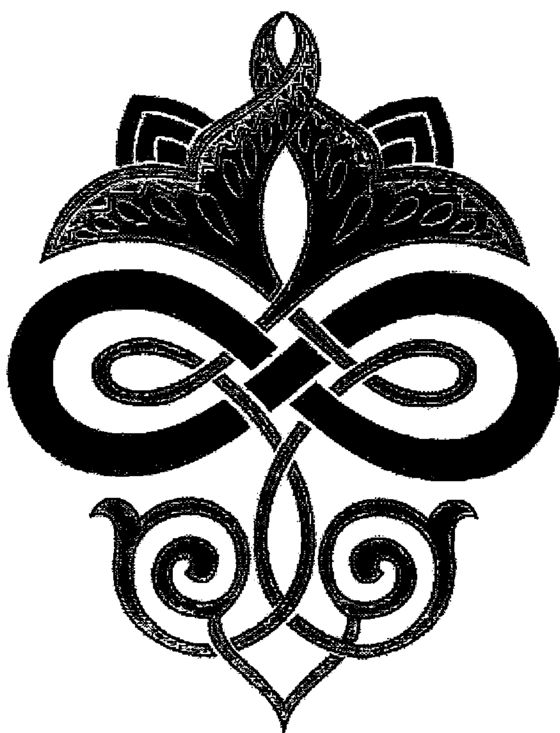
١٠- الترجمة للأعلام المذكورين ضمن الكتاب.

١١- كتابة عناوين على حاشية الكتاب تبين محتوى الكتاب.

١٢- كتابة قائمة توضح أهم مراجع التحقيق.

١٣- إعداد فهرس تفصيلي يوضح محتوى الكتاب.





صورة من المخطوطات المستعان بها

في تحقيق هذا الكتاب

كتاب الروضة الخضرا والدرة الزهرا في كشف
معاني [illegible] العيش الاصحية الفقرا تصنيف
الشيخ الامام القدوة ابو علي [illegible]
عبد الله بن [illegible] نفع الله به
آمين آمين آمين

اللهم اغفر لعبدك المذنب المعترف بالذنب
والتقصير [illegible]
[illegible]
[illegible]

اللهم اغفر لعبدك [illegible] المعترف
بذنبه والتقصير [illegible]
[illegible]
[illegible]

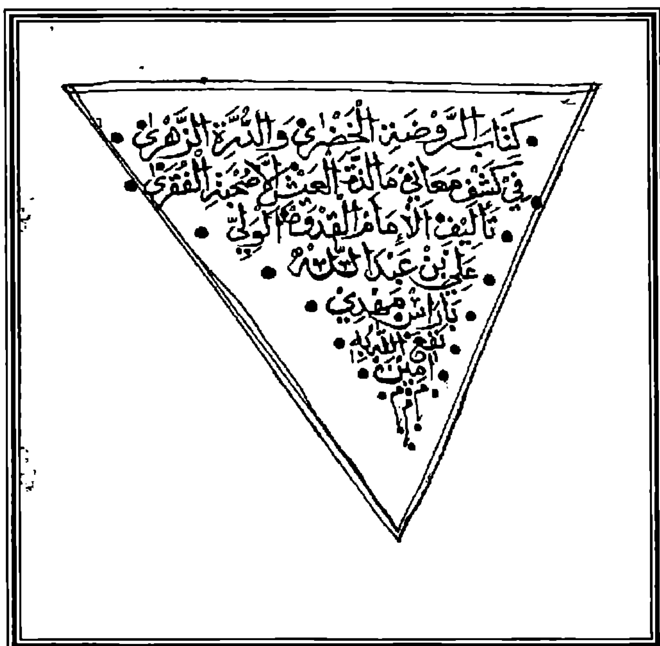
وبه الاستعانة

بسم الله الرحمن الرحيم [illegible]

الحمد لله الذي نصب اعلام الطريق وابان عن معالم التحقيق وجعل
اول قدم في فتح الطريق صحبة الرفيق فقال صلى الله عليه وسلم الرفيق
ثم الطريق فرتب سلوكه على الصحبة ودوامه على المحبة والصلاة
والسلام على امام عصابة الانبيا وقايد ركب الرسل والصديقين
والشهدا محمد وآله وصحبه نجوم الهدا ومصابيح الاقتدا وعلينا
معهم وساير الاحبة في الله من سلف او خلف من تمسك بذا [illegible]
وبعد فانه لما خطر لي ان اخدم القطب المشهور العلم المنيف
الذي شاعت اشاراته وفاضت عباراته وانتشرت لباناته في اقطار
الارض وفاح عبير نفحاته في الطول والعرض وانقاد لاحكامه اكابر
الاوليا وتلقا كلماته خواص الاصفيا وذلك الشيخ العارف بالله
الداعي على بصيرة الى طريق الله الناصح لساير خلق الله ابي مدين
شعيب نفع الله به وبعلومه وفيضات فهومه بتعليقة على
نفسه العالي وديباجه الغالي المشير الى نفايس الآداب
وعلي الاحوال وشوامخ بواذخ مقامات الرجال وذلك على حسب
قصوري وتخلفي عن ذلك الشاو الرفيع والمقام العالي المنيع
ولكني ارجو ان يتفضل المولى الكريم بما هو اهله من افاضة الفضل
العميم علي بما يوضح المراد من ذلك ويكشف للمسترشد بعض ما هنالك
وذلك بعد الاستخارة وظهور الاشارة الى التلويح بالسفارة
ونيل البشارة واعطا اللسان زمام العبارة وانا عن ذلك متبري
الحول والقوة لا نطق لي الا به ولا سمع لي الا عنه ولا نظر كذلك
ولا بطش ولا عقل ولا [illegible] ايمانا وتصديقا لانه كاين في العين
لا حادث في الاين فما بين الحق وبين ذلك الا البين كما صرح به

الحديث

صورة للغلاف والصفحة الأولى من النسخة (أ)



كتاب الروضة الخضرا والدرة الزهرا
في كشف معاني ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا
تأليف الإمام القدوة الولي
علي بن عبد الله
باراس مهدي
نفع الله به
آمين



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي نصب أعلام الطريق وأبان عن معالم
التحقيق وجعل أول قدم في هذه الطريق صحبة الرفيق
فقال صلى الله عليه وسلم الرفيق ثم الطريق فرتب سلوكه على
الصحبة ودوامه على المحبة والصلاة والسلام على إمام
عصابة الأنبيا وقائد ركب الرسل والصديقين والشهدا
محمد وآله وصحبه نجوم الهدا ومصابيح الاقتدا وعلينا
معهم وسائر الأحبة في الله ممن سلف وخلف ممن شملته
دائرة الاصطفا وبعد فإنه طال ما خطر لي أن أخدم
القطب الشهير والعلم المنير الذي شاعت إشاراته وفاضت
عباراته وانتشرت لباساته في أقطار الأرض وفاح عبير
نفحاته في الطول والعرض وانقادت لأحكامه أكابر الأوليا
وتلقا طاعاته خواص الأصفيا وذلك الشيخ العارف بالله
والداعي على بصيرة إلى طريق الله الناصح لسائر خلق الله

صورة للغلاف والصفحة الأولى من النسخة (ب)

كتاب الروضة للمصر

كتاب الروضة الخضرا والدرة الزهرا في كشف
معاني مالذة العيش الاصحة الفقرا تصنيف الشيخ
الامام القدوة الولي علي بن عبد الله باراس
مهدي نفع الله به آمين آمين آمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

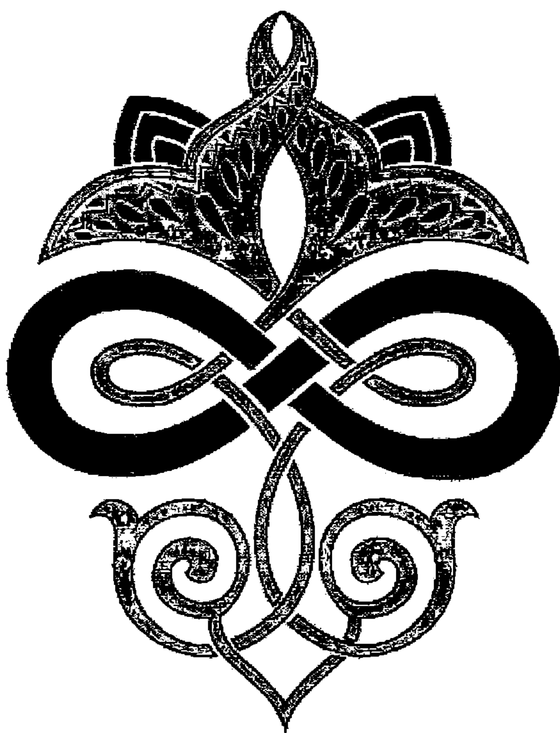
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

١٠

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الاستعانة الحمد لله الذي
نصب اعلام الطريق وابان عن معالم التحقيق وجعل اول
قدم في هذه الطريق صحبة الرفيق فقال صلى الله عليه وسلم
الرفيق ثم الطريق مرتب سلوكه على الصحبة ودوامه على
المحبة والصلاة والسلام على امام عصابة الانبياء وقايد
ركب الرسل والصديقين والشهداء محمد واله وصحبه نجوم
الهدى ومصابيح الاقتدا وعلينا معهم وساير الاحبة في الله
ممن سلف او خلف ممن شملتهم دايرة الاصطفاء وبعد
فانه طال ما خطر لي ان اخدم القطب الشهير والعلم المنير
الذي شاعت اشاراته وفاضت عباراته وانتشرت
لباساته في اقطار الارض وفاح عبير نفحاته في الطول
والعرض وانقاد لاحكامه اكابر الاولياء وتلقى كلماته
خواص الاصفيا وذلك الشيخ العارف بالله والداعي على
بصيرة الى طريق الله الناصح لساير خلق الله ابي مدين
شعيب نفع الله به وبعلومه وفايضات فهومه بتعليقة
على نفسه العالي ودرياقه الغالي المشير الى نفايس الاداب
وعلو الاحوال وشوامخ براذخ مقامات الرجال وذلك
على حسب قصوري وتخلفي عن ذلك الشاو الرفيع
والمقام العالي المنيع ولاكني ارجو ان يتفضل المولى الكريم
بما هو اهله من افاضة الفضل العميم على بما يوضح المراد

من

صورة للغلاف والصفحة الأولى من النسخة (ج)



ترجمة الشيخ العارف
أبي مدين التلمساني رحمه الله تعالى

نسبه ومولده ونشأته[١]:

هو شيخ المشايخ وسيد العارفين وقدوتهم الإمام المشهور سيدي أبو مدين الغوث شعيب بن الحسن الأندلسي الفاسي البجائي.

ولد (بقطينانة) من أعمال أشبيلية، ثم خرج من بلاده صغيراً فدخل طنجة وسبتة وجال في المغرب فدخل مراكش ثم رحل إلى فاس فأقام بها مدة طويلة يدرس العلم، ومن كبار شيوخه الإمام العارف أبو يعزى يلنور الهزميري الهسكوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ قرأ عليه (رعاية) المحاسبي وغيرها من الكتب، وقرأ كذلك على الإمام العارف علي بن حرازم المتوفى سنة ٥٥٩هـ ومما قرأه عليه (جامع الترمذي).

ومن شيوخه مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، فقد لقيه بالديار المقدسية وأخذ عنه وألبسه خرقة الصوفية وكان يعتبره من أجل شيوخه رضي الله عنهم، وأول شيخ أخذ عنه سيدي أبو مدين التصوف أبو عبد الله الدقاق كما في (التشوف إلى رجال التصوف) لابن الزيات التادلي[٢].

---

(١) ينظر (الكواكب الدرية في تراجم السادات الصوفية) ٢/ ٢٣٧، و (الطبقات الكبرى) المسماة (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار) للإمام الشعراني ١/ ٢١٥، و(الأعلام) للزركلي ٣/ ١٦٦، و(معجم المؤلفين) لكحالة ٤/ ٣٠٢، و(المطرب في مشاهير أولياء المغرب) صـ ٦٤ وما بعدها.

(٢) هكذا نقله عنه الشيخ عبد الله التليدي في (المطرب بمشاهير علماء المغرب) صـ ٦٧ .

ومن عجيب الموافقات التي تجمع بين العارف أبي مدين والعارف باراس رحمهما الله تعالى أنهما اشتغلا في بداية أمرهما برعي الأغنام ثم تاقت نفسيهما لتعلم العلوم والمعارف ففتح الله عليهما بعد ذلك فتحاً عظيماً.

ومن الأمور المتشابهة بينهما أيضاً تعرضهما للامتحانات والرياضات الشاقة من شيخيهما فقد امتحن العارف أبي يعزى تلميذه أبي مدين ومنعه الطعام مدة ثلاثة أيام حتى أجهده الجوع وجعلت الخواطر ترد على قلبه، ثم تمرغ في مجلس الشيخ فعمي، فلما أصبح دعاه الشيخ فمسح بيده على عينيه فأبصر ثم مسح على صدره فذهب ما كان يجده من الخواطر وألم الجوع وشاهد لحينه عجائب البركات، ثم قال أبو يعزى للحاضرين: إن هذا سيكون له شأن عظيم. ثم أذن له في الانصراف، وإذا تأملت في ترجمة الشيخ علي باراس الآتية بعد هذه الترجمة تلاحظ أنواعاً من الامتحانات والرياضات ارتاضه بها شيخه الإمام عمر ابن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى، وبذلك يفهم سر التجانس بين رجال التصوف وفهمهم لإشارات بعضهم البعض فترى هذا شرح رموز هذا وإشاراته ودقائق علومه لاشتراكهما في نوع التجربة ولشربهم من نفس الكأس.

فهم كما يقول الحبيب الإمام عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه رحمه الله تعالى المتوفى سنة (١١٦٤هـ):

تفرقـوا في شـعب الإسـلام ... وافترقوا في ظاهر الأحكام
واتفقـوا في القـصد والمـرام ... وقصد وجه الله ذي الجلال

ظهوره وسطوع نوره:

ذكر التادلي في (التشوف إلى رجال التصوف): أنه تخرج به ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات. وقال عنه: إنه كان مبسوطاً بالعلم، مقبوضاً بالمراقبة، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى، وكان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث،

خصوصاً (جامع الترمذي) فقد كان قائماً عليه، وكان يلازم كتاب (الإحياء) ويعكف عليه، وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت، وله مجلس وعظ يتكلم فيه، يجمع عليه الناس من كل جهة، وتخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال[١].

قال المناوي في (الكواكب الدرية): وأخذ عنه الكبراء كالعارف ابن عربي رضي الله عنه، وقال: كان سلطان الوارثين[٢].

وقال عنه الشعراني في (طبقاته): أجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بين يديه، وكان طريفاً جميلاً متواضعاً زاهداً ورعاً محققاً مشتملاً على كرم الأخلاق رضي الله عنه[٣].

ارتباط المدرسة العلوية الحضرمية بالمدرسة الشعيبية المدينية:

لم يأتي اهتمام علماء الحضارمة بكتب ومعارف الشيخ شعيب أبي مدين رحمه الله تعالى من فراغ، بل إن لذلك الارتباط بين المدرستين سنداً ثابتاً ذكرته كتب الأثبات والأسانيد والتاريخ الحضرمية وأثبتت من خلاله أخذ عقد التحكيم ولبس الخرقة الشعيبية التي حملها الشيخ الجليل عبد الرحمن بن محمد المقعد الحضرمي ثم المغربي بأمر من شيخه أبي مدين رحمه الله تعالى حينما قال له: ((إن لنا بحضرموت أصحاباً اذهب إليهم وخذ عليهم التحكيم وحكمهم وألبسهم الخرقة))، وأعطاه الخرقة وأمره أن يعطيها الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي المتوفى سنة ٦٥٣هـ بتريم حضرموت، ولما وصل المقعد إلى مكة المشرفة حضرته الوفاة فأوصى من تلامذته الشيخ الكبير عبد الله الصالح

---

(١) ينظر (المطرب): صـ ٦٧ بتصرف.
(٢) ينظر: ٢/ ٢٣٧.
(٣) ينظر: ١/ ٢١٦.

المغربي وأعطاه تلك الخرقة الشريفة وأمره بالسفر إلى حضرموت لتحكيم مجموعة من كبار علمائها وصلحائها وهم: الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي والشيخ سعيد بن عيسى العمودي، والشيخ باعمرو صاحب (عُورة) والشيخ باحمران صاحب (ميفعة)[١] رحمهم الله أجمعين. وبالفعل وصل الشيخ الصالح المغربي إلى حضرموت وقصد العلماء المذكورين مبتدأ بالفقيه المقدم وحكمهم وألبسهم الخرقة وبهذا الأمر تم الارتباط الصوفي بين المدرسة العلوية الحضرمية والمدرسة الشعيبية المدينية، وعن هذا يتحدث العارف الإمام علامة الدنيا الحبيب عبد الرحمن بلفقيه فيقول: ((فأصل طريق السادة آل أبي علوي: الطريقة المدينية، طريق الشيخ أبي مدين شعيب المغربي، وقطب مدارها وحقيقتها الفرد الغوث الشيخ الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي الحسيني الحضرمي))[٢].

وقد أشار إلى هذه العلاقة بين الطريقتين المدينية والشعيبية الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى في مقدمة (الروضة الخضراء) حينما قال: ((فإنه طالما خطر لي أن أخدم القطب الشهير والعلم المنير، الذي شاعت إشاراته وفاضت عباراته، وانتشرت لباساته في أقطار الأرض، وفاح عبير نفحاته في الطول والعرض، وانقاد لأحكامه أكابر الأولياء، وتلقى كلماته خواص الأصفياء، وذلك الشيخ العارف بالله، والداعي على بصيرة إلى طريق الله، الناصح لسائر خلق الله، أبي مدين شعيب نفع الله به وبعلومه وفائضات فهومه، بتعليقة على نَفَسِهِ العالي، ودرياقه الغالي، المشير إلى نفائس الآداب وعليِّ الأحوال، وشوامخ بواذخ مقامات الرجال)).

فتأمل قوله: ((وانتشرت لباساته في أقطار الأرض)) فإنه يشير به إلى امتزاج الطريقتين العلوية والمدينية واتحاد مشربهما.

---

(١) ينظر (المشرع الروي) ٢/ ٢٣٧، و(تاريخ حضرموت) للحامد ٢/ ٧١٦ و٧٣٠.

(٢) ينظر (عقد اليواقيت الجوهرية) ١/ ٣٣.

حكاية عجيبة:

يروي الحافظ المناوي في (طبقاته)[١]: أن بعض الأولياء رأى إبليس، فقال له: كيف حالك مع أبي مدين؟ قال: ما شبهته في نفسي فيما يلقى إليه في قلبه إلا كشخص بال في البحر المحيط، فقيل له: لما تبول فيه؟ قال: حتى أنجسه فلا تقع به الطهارة، فهل رأيتم أجهل من هذا؟ فكذا أنا، وقلب أبي مدين كلما ألقيت فيه أمراً قلب عينه.

نماذج من حكمه وكلامه:

للإمام أبي مدين الغوث رحمه الله تعالى كلام رائق تستنير به القلوب وتطرب له الأرواح؛ لأنه من فائضات العلم المكنون الذي يثمره الإخلاص والصدق في المعاملة للحي القيوم فإليك باقة عطرة منه:

كان يقول رحمه الله تعالى: ((علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق))، وكان يقول: ((شتان بين من همته الحور والقصور وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور))، ويقول: ((من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه، ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته))، وسئل مرة عن الحب، فقال: ((أوله دوام الحب، وأوسطه الأنس بالمذكور وأعلاه أن لا ترى سواه))، وسئل عن الشيخ فقال: ((الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم، والشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بأطرافه وأنار باطنك بإشراقه))، وكان يقول: ((بفساد العامة تظهر ولاة الجور، وبفساد الخاصة تظهر الدجاجلة في الدين والفتانون))، ويقول: ((من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوى

---

(١) (٢/ ٢٤٤).

وأقواله بعين الافتراء))، ويقول: ((ما وصل إلى مقام الحرية من بقيت عليه من نفسه بقية))، وكان يقول: ((من لم يخلع العذار لم ترفع له الأستار))[١].

شعره:

للإمام الغوث شعيب أبي مدين رحمه الله تعالى شعر عذب رائق يحكي لنا ما يخالج نفسه من مشاعر القرب والدنو من حضرة الملك العفو، وما يجده من الوجد الذي تثمره العبودية المحضة لله تعالى، فلذلك تراه يطرب الأرواح حينما ينشد، ويحرك الأحاسيس والمشاعر ويحدوها نحو المعالي حينما يترنم به، ومنه قصيدتنا هذه التي شغفت بها قلوب العارفين فحفظوها وشرحوها وخمسوها إعجاباً بها وبما تضمنته من دقائق آداب السالكين وعجائب أخلاق المسلكين من العارفين، فشرحها الإمام أبو العباس أحمد بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة (٧٠٩هـ) بشرح يحمل عنوان (التوفيق في آداب الطريق)، وعلى الأصح والأقرب أنه هو الشرح المنسوب للإمام أحمد بن إبراهيم بن علان المتوفى سنة (١٠٣٣هـ)، وقد طبع قريبا من قبل دار التقوى بتحقيق محمد عواد العواد[٢]، وشرحها العلامة عبد الغفور بن محمد النابلسي النحوي الشهير بالجوهري المتوفى سنة (١٠٩١هـ)، وشرحها العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله المكودي التازي المتوفى سنة (١٢١٤هـ)، وشرحها العلامة محمد بن عبد الله المنبهي بشرح يحمل عنوان: (مختصر كشف الأستار الغيبية عن وجه القصيدة الشعيبية)[٣].

ومن أشهر من خمّسها الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي الحاتمي الطائي المتوفى سنة (٨٣٨هـ).

---

(١) ينظر (المطرب) ٧٥-٧٩.

(٢) ونسب بعضهم هذا الشرح أيضاً للإمام ابن عجيبة المغربي.

(٣) ينظر (جامع الشروح والحواشي) ٢/ ١٣٧٣.

ومن غرر قصائده قوله:

الله قل وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته ... عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا ... شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً ... في الحال والماضي والاستقبال

وقوله:

تضيق بنا الدنيا إذا غبتم عنا ... وتذهب بالأشواق أرواحنا منا
فبعدكم موت وقربكم حيا ... فإن غبتم عنا ولو نفساً متنا
نموت ببعدكم ونحيا بقربكم ... وإن جاءنا عنكم بشير اللقا عشنا

وقوله:

تحيى بكم كل أرض تنزلون بها ... كأنكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم منظراً حسناً ... كأنكم في عيون الناس أزهار
ونوركم يهتدي الساري برؤيته ... كأنكم في ظلام الليل أقمار
لا أوحش الله ربعاً في زيارتكم ... يا من لهم في الحشا والقلب تذكار

مؤلفاته:

١- (حِكَمُ أبي مدين) وتعرف أيضاً بـ (أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التوحيد) وقد شرحها جماعة من أكابر العلماء منهم: الإمام شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن علان المتوفى سنة (١٠٣٣هـ) وعنوانه (شرح حكم أبي مدين) والكتاب مطبوع.

وشرحها العلامة أحمد بن مصطفى العلوي المستغانمي المعروف بابن عليوة المتوفى سنة (١٣٥٣هـ) بشرح يحمل عنوان: (المواد الغيثية في شرح الحكم الغوثية) وهو مطبوع بالجزائر[1]. وشرحها أيضاً العلامة الصوفي أحمد بن عبد القادر بن عمر باعشن الدوعني الحضرمي المتوفى سنة (١٠٥٢هـ) وسمى شرحه: (البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه في حقائق التوحيد شرح أنس التوحيد) وقد طبع بمصر سنة ١٣٠٠هـ[2].

٢- ديوان القطب أبي مدين جمعه ورتبه سيدي العربي بن مصطفى الشوار التلمساني وسماه: (المنن الربانية الوهبية في المآثر الغوثية الشعيبية) وقد أضاف معه حكم أبي مدين رحمه الله تعالى، وجددت طباعته سنة ١٤٢٣هـ بعناية وإشراف الشيخ الدكتور عيسى بن مانع الحميري.

هذا ما وقفت عليه من مؤلفات الشيخ رحمه الله تعالى وقد تكون له مؤلفات أخرى لم أقف عليها لقصوري.

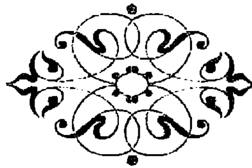
---

(١) ينظر (جامع الشروح والحواشي) ٢/ ٨٤٣.

(٢) ينظر (مصادر الفكر) صـ ٣٢٤، و(معجم المؤلفين) ٣/ ٣٠٢.

وفاته:

بقي الإمام أبو مدين رحمه الله تعالى على حالته من الإرشاد والإصلاح والدعوة إلى الله تعالى وتربية المريدين ليل نهار، وكان مقره الأخير ببجاية من بلاد الجزائر؛ لأنها كانت – كما يقول – تعين على طلب الحلال، وعندما انتشر أصحابه وكثر أتباعه بكل أنحاء المغرب، وبعض الجهات الشرقية حسده بعض الفقهاء وعلماء الرسوم، فوشى به إلى السلطان يعقوب المنصور أحد ملوك الموحدين وحذره منه، وقال له: إنه يشبه الإمام المهدي، وإن له أتباعاً كثيرين في سائر البلاد فخافه السلطان فأمر خليفته وعامله ببجاية أن يبعث به إليه وأوصاه بالإحسان إليه، فامتثل الشيخ الأمر وتجهز للسفر فاشتد ذلـ.. ، أصحابه فوعدهم بأنه لا يرى السلطان ولا يلقاه فاطمأنوا لذلك فودعهم وخرج، ولما وصل لمدينة تلمسان مرض مرضه الأخير، ولما اشتد عليه ذلك طلب منه بعض أصحابه أن يوصي ويعهد إليهم فقال: ((سبحان الله، وهل كانت حياتي كلها إلا وصايا لكم))؟! وعقب ذلك بقليل وافاه أجله المحتوم فخرجت روحه الطاهرة، وذلك سنة (٥٩٤هـ)، ودفن في مرقده الأخير بجبل العباد خارج تلمسان، ونقل المناوي في (طبقاته) أن آخر كلامه قبل الوفاة الله الحي ثم فاضت نفسه رضي الله تعالى عنه ونفعنا به في الدنيا والآخرة[1].



(١) ينظر (المطرب) صـ ١٨.



ترجمة الشيخ العارف
علي بن عبد الله باراس رحمه الله تعالى

نسبه:

هو الشيخ العارف، والإمام الناسك، علي بن عبد الله بن أحمد بن عمر بن أحمد بن عمر باراس ابن ظفر بن مهدي السيباني، الحريضي مولداً، الخريبي وفاة[١].

مولده ونشأته ومراحل حياته:

استناداً إلى ما ذكره العلامة علي بن حسن العطاس رحمه الله تعالى تكون ولادة العارف باراس سنة ١٠٢٧هـ ببلاد حريضه، وبها نشأ وترعرع، واشتغل في بداية شبابه برعي الأغنام[٢] عند الإمام العارف عمر بن عبد الرحمن العطاس المتوفى سنة (١٠٧٢هـ)، فلما لمح عليه الإمام عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى ملامح النجابة والصلاح لاحظه بنظره وراعاه مراعاة خفية، حتى طلب المترجم له من الإمام المذكور أن يأذن له بخدمته، فسمح له بذلك، وكلَّفه في بداية الأمر بأن يتكفل بإحضار أحجار الاستنجاء، وأن يجلب الماء للأرامل من النساء؛ امتحاناً له وترويضاً لنفسه، فقبل ذلك وفرح به؛ إذ أنه اقترب بهذا العمل من مجالس شيخه العلمية التي شغف فؤاده بها، ورغب أن يكون في جملة المترددين عليها الناهلين من معينها علوماً ومعارفاً تنير العقول وتهدي القلوب..

---

(١) هكذا ذكر العلامة علوي بن طاهر الحداد في (الشامل) صـ١٤٠، وفي ترجمة السيد العارف علي بن حسن العطاس صـ٢٤، نقلاً عن تلميذ المترجم له الشيخ عبد الله باعباد أنه ينتسب إلى قبائل من العرب العرباء، وفي (إدام القوت) صـ٣١٦، نسبة ابن عبيد الله إلى كنده.

(٢) ترجمه الحبيب علي بن حسن العطاس للمترجم له صـ٧٥.

وبمرور الأيام والشهور شعر شيخه بحزنه الشديد على عدم حضوره باستمرار لدروس العلم، حيث أنه قد تذوق باطنه حلاوة ما يدور من كؤوس العلم الشهية في تلك المجالس التي يحضر بعضها عندما يفرغ من أعمال الخدمة المكلف بها..، والأعجب من ذلك فإنه كان يشعر بانجذاب كامل للعلوم والمعارف، ويحس بنشوة عارمة للانتهال من ذلك المنهل العظيم وسر هذا التوجه والانبعاث النظرات التي يراعيه بها شيخه العارف عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى، حتى قال العلامة العارف علي بن حسن العطاس رحمه الله تعالى: ((وفي حالة الرعاية حصلت له رعاية))[١]، وحينها أذن له شيخه السيد عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى بالقراءة عليه، وروت بعض كتب التاريخ أن أول مقروءاته عليه كان كتاب (بداية الهداية) للإمام حجة الإسلام الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ)، ففتح الله عليه (بالبداية)، وهدي بها غاية الهداية[٢]، ثم إنه بعد ذلك لازم شيخه المذكور في جميع مجالسه، وحفظ القرآن الكريم كاملاً برعاية شيخه المذكور[٣]، ورافقه في جميع أسفاره، واكتسب منه معارفاً جمة وأخلاقاً عظيمة مهمة، وخبرة في دعوة الخلق وتقريبهم إلى الخالق تنير له الطريق وتزيح عنه التعويق، والأعظم من هذا كله أنه اكتسب من هذه المرافقة أحوالاً من الزهادة والصبر على مكابدة المشاق في الدعوة إلى الله ما كان ليكتسبها لولا هذه المرافقة والخدمة لأهل التجرد لطاعة الله ودعوة الخلق لحضيرة الحق جلَّ في علاه..، ولا ننسى أنه في تلك الرحلات والتنقلات في قرى الوادي وكذلك في تلك المجالسات التي كان يحضرها مع شيخه عند إقامته في بلاد حريضة لا ننسى أنه كان يلتقي بالعلماء الأجلاء الموزعين في قرى تلكم الوديان أو الوافدين على

---

(١) أي في حالة عمله برعي أغنام شيخه حصلت له رعاية باطنة استنار بها فؤاده.

(٢) ينظر (إدام القوت) صـ ٣١٦.

(٣) ترجمه علي بن حسين العطاس المخطوطة، صـ ٣.

الإمام عمر بن عبد الرحمن من مختلف البلدان فيتشرف بالأخذ عنهم والسماع لهم والاستجازة منهم.

ومن عجائب ما يروى عن العارف باراس رحمه الله تعالى وتجرده عن الدنيا وعزوف نفسه عنها أنه خرج عن جميع ما يملك بالنذر لشيخه المذكور[1]، وكأنه يقول: إذا صفيت لي لذائذ العلوم وحقائق المعارف فعلى الدنيا السلام، والذي يوصلني إلى هذا المقام يستحق أن يبذل له جميع هذا الحطام، وهو في فعله هذا يشبه بصاحب رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي بذل ماله وحاله في سبيل إقامة الدين وصحبة النبي الأمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مبرزاً لهذا الموقف العظيم ليعلمه كل إنسان: ((**ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبو بكر**))، فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله. هكذا رواه أحمد في (المسند)، وروى الترمذي: ((**ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه، إلا أبو بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر**))، وهذا ما كان يرجوه العارف باراس من شيخه العارف العطاس رحمهما الله تعالى، وقد أعطاه الله ما رجاه، فقد روي عن شيخه المذكور أنه كان يقول: ((من فرق بيني وبين علي لا يفلح))، ومرة أخرى قال: ((أنا صندوق مقفل وهو مفتاحي))، وقال عنه أيضاً: ((عمر علي وعلي عمر))[2]، وفي مقولته الأخيرة يشير إلى ما قاله القائل:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فمتى أبصرتنا أبصرتهم ... ومتى أبصرتهم أبصرتنا

(١) ينظر ترجمة علي بن حسن العطاس، صـ ٣.
(٢) المرجع السابق، صـ ٩٣.

فبالتسليم للعارفين يحصل التمكين للمريدين، وبالانطواء في الصالحين يحصل الفتح المبين، وهذا ما كان عليه الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى مع شيخه، وعند تأملك في شرحه لهذه القصيدة وخصوصاً عند شرحه لقول أبي مدين الغوث رحمه الله تعالى:

وراقب الشيخ في أحواله فعسى يرى عليك من استحسانه أثرا

تدرك أنه يصف حالته مع شيخه، ويكشف عن ثمرات تلكم الخدمة لهؤلاء الرجال الأكابر، وخصوصاً أنه يقول بعد أن كشف عن أنواع من تلك الثمرات التي يجنيها المريد بواسطة الخدمة وإحسان المراقبة للشيخ والتأدب معه: ((وإذا حسنت مراقبة المريد للشيخ ظهرت بواسطته ما تكل عنه العبارات، وتقصر دونه الإشارات، فإن الشيخ روح طريق السالكين، وبرضاه ينال رضا رب العالمين)).

وقال بعد ذلك بسطور: ((ولو أخذنا فيما يفتح به على السالك من الحقائق والآيات لاستغرق منا جملة الأوقات، ولكن البعض يدل على الكل، وذلك ببركات مراقبات أحوال السادات، فتبلغ بنظرة منه ما لا تبلغه باجتهادك دهوراً وأوقاتاً)) ولي في ذلك شعراً:

للشيخ وقت إذا راقبته حساً يغمر وجود مريد الحق فانتظرا

عسى تنال لذاك الوقت إنَّ سنا أنوار غرته سر له أثرا

قم واغتنم زمن الإمكان إنَّ جنا أنوار أشجار سرِّ الغيب قد ظهرا

الله أكبر ذا فتح بغير عنى فبدْرُ إشراق نور الفتح فيك سرا

فهذه الومضات الرائعة ما هي إلا إشارات من طرف خفي إلى ما امتن الله به عليه بسبب حسن التأدب مع شيخه، ويظهر ذلك جلياً في قوله: ((فتبلغ بنظرة

منهم ما لا تبلغه باجتهادك دهوراً وأوقاتاً))، فهو يصف طريقاً سلكها بنفسه..، ويتحدث عن حال ذاق حلاوة كأسها بسره وروحه، وبها دام سروره وأنسه.

وعلى كل حال فشرحه هذا ما هو إلا عبارة عن كشف عن حاله مع شيخه، وكيف كان يعامله ويصاحبه وينظر إليه، ولعلك إذا أمعنت النظر تحققت من هذه الحقيقة التي هي واضحة للعيون.

وقد كابد في بدايته أنواعاً من الامتحانات التي أبانت عن عمق محبته لأهل الولاية والإيمان، وأظهرت عن صفات الصبر والصدق التي كان يتمتع بها القلة من بني الإنسان، ومنها أن شيخه رحمه الله تعالى كان يكلفه في بعض الأوقات بأن يجز حقلاً كاملاً من نبات الذرة في اليوم الشديد الحر فلا يتردد لحظة في قبول ذلك، بل يسرع مبادراً حتى يأتي عليه كله ويعود إلى شيخه، فيقول له: هل عددته؟ فيقول لا، فيقول له: قم فعده، فيقوم فرحاً ويعده ويعود، فيقول له هل صوَّنته أي جمعته مع بعض على شكل مرتب ومنظم؟ فيقول: لا، فيقول: قم وافعل ذلك، فيقوم مسرعاً ويفعل ما أمره به، فلا يتم ذلك العمل إلى وقد بردت الشمس[(١)].

فما هو في عمله هذا إلا مطبقاً لما قاله أبو مدين الغوث في قوله:

وقدم الجد وانهض عند خدمته ... عساه يرضى وحاذر أن ترى ضجرا

وما قوله رحمه الله تعالى في (الروضة الخضراء) عند شرح هذا البيت إلا كشفا عن معاناته في بدايته: ((وكل سالك لا يركب متون العزائم، ويرمي بنفسه في يم مهمات الأمور العظائم، ويطلب الخدمة تحت كل عالم، فقلَّ أن يصل إلى نائل ويتحقق بطائل..)) إلى أن قال: ((وخدمة المشايخ من أجلِّ ما يتقرب المريد بها إلى رضا الله تعالى؛ لأن قلوبهم كما علمت مواضع نظره، فحيث أدخلت السرور

---

(١) ينظر المرجع السابق، ص: ٦٣.

عليهم كنت في قلوبهم لا محالة، وإذا كنت في قلوبهم غمرتك تلك النظرات ونالتك تلك اللحظات ..))، إلى أن قال: ((فإذا علمت ذلك وتحققت بها هنالك، فاحذر أيها السالك أن تكن ضجراً مما تتوارد عليك من مشاق الأمور، ومعضلات النوائب الشاقة على الطباع، فالتضجر هو التبرم، ومن ألف التبرم بأوامر الأشياخ، كان بأوامر الله كذلك)).

فتأمل هذا الكلام العذب تجده حال الشيخ في بدايته، يحكيه لنا حقاً لا حدساً وتخميناً، بل هو وصف المتحقق الذائق، والمتمرس المجرب.

وبعد أن صار الشيخ ذهباً خالصاً وجوهراً صافياً أمره شيخه بأن يمارس الدعوة إلى الله تطبيقاً وواقعاً، وذاك حينما أشار عليه بأن يعلم الناس القرآن ومبادئ العلوم في وادي عمد ببلاد قرن المال، فلم يتردد في إنفاذ أمر شيخه لحظة واحدة مع أنه يصعب عليه مفارقته، ولكن الخير فيما أمره به لا فيما اشتهته نفسه وألفته ومال إليه هواه فأحبه. وقديماً قال أهل السلوك والإرادة: ((لفلاح المريد ثلاث علامات: أن يحب شيخه بالإيثار، ويتلقى منه كل ما أمره بالقبول، ويرافقه في كل أمر يرومه))[1].

وبعد أن أمضى ببلاد (قرن المال) مدة نشر خلالها العلم انتقل منها للتعليم بقرية أخرى من قرى وادي عمد تسمى (علط)، فأقام بها مدة ناشراً للعلم إلى أن أشار عليه شيخه بالرجوع إلى حريضة، وقد اكتسب من تلك الرحلات أخلاقاً أفادته إياها طباع البادية وغلظتهم، حيث أكسبته ملكة الصبر والحلم والسماحة بسبب معالجته لأخلاقهم وأخلاق أولادهم.

---

(١) ((الأنوار القدسية)) للشعراني ٢/ ١٦.

حجّهُ وزيارته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم:

سافر الشيخ علي رحمه الله تعالى لأداء النسك وزيارة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مرة واحدة، وقد كان منطلقه من بلاد حريضة وذلك قبل إقامته بوادي دوعن، وقد استصحبه فيها السيد العارف عيدروس بن علوي ابن شيخ الحبشي، وفيها التقى بعدد من المشايخ، ومنهم السيد حسين بامقلّف[١] المخائي الذي بشر الشيخ علي ببشائر عظيمة، وحصلت له في حجته هذه كرامات وهبات تدل على ما له من شريف المقامات وبعدها عاد إلى بلاد حريضة فأمره شيخه بالتوجه إلى بلاد دوعن، فتوجه إليها وأقام ببلاد الخريبة داعية ومسلكاً حتى وافاه الحمام بها[٢].

استقراره ببلاد الخريبة:

وبعد أداءه لفريضة الحج انتقل الشيخ إلى مرحلة أخرى من مراحل حياته وهي مرحلة الاستقرار، حيث استقر بتوجيه من شيخه بوادي دوعن وفي بلاد (الخريبة) تحديداً، وبها ظهر مقامه العظيم في نشر الدعوة وإرشاد السالكين، حتى صار مقصد الطلاب من جميع أفجاج البلاد، وأشار إلى عظيم مقامه العلامة علوي بن طاهر الحداد رحمه الله تعالى في كتابه (الشامل) حينما قال: ((وظهر في بلد الخريبة فقهاء انقطعت أخبارهم واندرست آثارهم لفقد من يعتني بتراجمهم، وبها

---

(١) وهو من نسل محمد بن أحمد بن أبي بكر السكران. الملقب بمُقلّف وهو مشتق من قلب الشيء من ظاهره إلى باطنه لأمره بتقليف التمر وهو إخراج النوى منه وكبسه بعد ذلك؛ ولذلك يقال لأفراد نسله بامقلّف إلا أن آل المساوى غلب عليهم ذلك. ينظر المعجم اللطيف صـ (١٧٤-١٧٥).

(٢) ترجمة الحبيب علي بن حسن، صـ ٤.

ظهر الشيخ العالم الصوفي المعتقد علي بن عبد الله باراس الظفري السيباني تلميذ العارف بالله الحبيب عمر بن عبد الرحمن العطاس العلوي الحسيني))[١].

فانتعشت بلاد الخريبة بعلوم الشيخ وأحواله، وازدهت بأنفاسه وأسراره، وصارت مقصداً للوفود والطلاب من شتى بقاع الأرض، وبقي ببلاد الخريبة داعية ومربياً مدة تسع وأربعين سنة، باذلاً وسعه في نفع العباد، محتسباً لله ومتوكلاً عليه إلى أن وافاه الأجل المحتوم، فعليه رحمة الله تعالى.

شيوخه:

جميع من يتحدث عن الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى يشير إلى أنه شارك شيخه الإمام عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى في عددٍ من شيوخه، وهذا الأمر لا يستبعد، فإن الشيخ علي رحمه الله تعالى قد زار مدينة تريم مراراً، واتفق فيها بعدد من أكابر الشيوخ، فأخذ عنهم، كما اجتمع بعددٍ منهم في زيارة نبي الله هود عليه السلام، الزيارة السلفية التي لا يتخلف عنها إلا من عُذر من العلماء والصلحاء، وذلك بعد أن حصلت له الإشارة من شيخه، وقد ذكر ذلك السيد علي بن حسن العطاس رحمه الله تعالى في ترجمته[٢]، ومما قاله هناك: ((وزار نبي الله هود عليه السلام، واجتمع بجماعة من السادات في تريم وعينات ..، وزار أيضاً مرة ثانية فاجتمع أهل حضرموت عليه، والتمس منه الخاص والعام، وطلبوا منه الإلباس والتلقيم وغير ذلك))[٣]، وهنا نشير إلى جملة من مشاهير شيوخه:

---

(١) (الشامل) صـ١٤٠.

(٢) (صـ ١٨).

(٣) كما أنه التقى بعدد من العلماء في أثناء رحلته إلى الحج ولا شك أنه تشرف بالأخذ عن بعضهم.

١- الإمام الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم رحمه الله تعالى المتوفى بعينات سنة (١٠٤٤هـ)، وهي السنة التي ولد فيها الإمام الحداد رحمه الله تعالى، وقد كان رحمه الله تعالى عالماً عاملاً فقيهاً محيياً للسنة مميتاً للبدعة، وهو شيخ شيخه الإمام عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى وشيخه أيضاً كما تقدم من أنه زاره بعينات وحضر معه زيارة نبي الله هود عليه السلام[١].

٢- الإمام العارف عمر بن عبد الرحمن العطاس المتوفى سنة (١٠٧٢هـ)، وهو من كبار أئمة الطريق الذي اتسع نفعهم واستنارت البلاد بهديهم، وهو المعني بقول الإمام الحداد رحمه الله تعالى في عينيته:

وأبي الحسين عمر العطاس من ... قد صار من أهل اليقين بموضع

فقد كان رحمه الله تعالى داعياً بماله وحاله ومقاله، أقام ببلاد حريضة داعية إلى الله بتوجيه شيخه الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم رحمه الله تعالى، فمكث بها حاملاً لهم الإبلاغ لأنوار هذا الدين إلى أن انتقل إلى جوار رب العالمين[٢].

٣- الفقيه العلامة محمد بن سليمان باحويرث رحمه الله تعالى، وهو من مشاهير فقهاء الحضارمة في القرن الحادي عشر، وقد نقل السيد العلامة الفقيه القاضي طه بن عمر السقاف رحمه الله تعالى المتوفى سنة (١٠٦٣هـ) في كتابه (المجموع لمهمات المسائل من الفروع) عن الشيخ محمد بن سليمان باحويرث الكثير من المسائل في أكثر من خمسة وعشرين موضعاً، وكان الإمام عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى يلقب الشيخ محمد باحويرث (بناصر الدين)، وكان

(١) ينظر ترجمة الحبيب علي بن حسن، صـ ٤٤.
(٢) تنظر ترجمته في شرح العينية، صـ ٢٦١، و(خلاصة الخبر) صـ ٢٧٦، إلا أنه أخطأ في تاريخ وفاته فليتنبّه.

الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى يعرض مؤلفاته على شيخه هذا فيبجله ويجري تصانيفه على قانون محمود، وكان ذلك من جهة اللغة[١].

٤- الفقيه العلامة أحمد بن علي بابحير رحمه الله تعالى[٢]، وهو من مشاهير فقهاء القرن الحادي عشر، لازمه مدة بوادي عمد، وقرأ عليه في الفقه حتى برع فيه، وذكرت المصادر أنه أقام عنده مدة وقرأ عليه (التحفة)[٣] والمتأمل في بعض عبارات (الروضة الخضراء) يلاحظ الكثير من المصطلحات التي هي ألصق بالفقه منها بالتصوف كقوله: ((والاستعداد على قدر ما قسم من الحظوظ الخفية، والأنصباء القريبة)) فلفظ النصاب يجمع على أنصباء وأنصبة كما أفاده الفيروزأبادي في (القاموس)[٤]، وهي لفظة فقهية تستخدم في كثير من أبواب الفقه كالزكاة والمواريث، كما أن في جمعه كلمة نصاب على أنصباء إلماح إلى الجانب اللغوي الذي وصل إليه ومارسه المترجم، وهذا تلحظه كثيراً في تعريفه للكثير من المصطلحات لغوياً ثم سلوكياً، فهو بالإضافة إلى الملكة الفقهية يتمتع بملكة لغوية ممتازة.

ومما يؤكد خلفيته الفقهية قوله في (الروضة الخضراء) مبيناً متى يكون السكوت واجباً ومتى يكون الكلام واجباً؟: ولزوم الصمت ملاك دين الشخص في سائر الأحوال، إلا في حال طلب فيه الكلام كالكلام بالواجبات والمندوبات وسائر المستحسنات ، والنهي عن المحرمات بل والمكروهات، فإن النطق فيها عند اجتماع شرائط الأمر والنهي واجب في الواجب، ومستحب في المسنون والمكروه وما هو من الضرورات.

---

(١) ينظر ترجمة الحبيب علي بن حسن، صـ ١٤، وبحث (وقفات يسيرة توضح المكانة الفقهية لعلماء الديار الدوعنية) للسيد علي بن عبد الله الجيلاني، صـ ١٩٣، ضمن مجلة المنتديات البحثية.

(٢) ترجمه الحبيب علي بن حسن، صـ ٤.

(٣) ينظر تاج الأعراس ١/ ٦١٦، فيض الأسرار ٢/ ٨٤.

(٤) مادة نصب، صـ (١٧٧).

ومما يقطع بخلفيته الفقهية ما نقله عنه صاحب كتاب (ظهور الحقائق)[١] من أنه كان يقرّرُ لتلاميذه كتاب (الإرشاد) لابن المقرئ ثم أمره شيخه بالعدول عنه إلى (المنهاج) للإمام النووي كما سيأتي ذلك في ترجمة الشيخ باعُباد.

٥- العالم الرباني حسين بامقلف المخائي رحمه الله تعالى[٢]، التقى به الشيخ علي في رحلته إلى الحج بالمخا وزاره في بيته واختبره أولاً ورده ثم رحب به وأكرمه، وقال له: يا علي أنت منظور[٣].

تلاميذه:

إذا أردنا الإحصاء لتلاميذ الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى فإن الأمر متعذر جداً، وما ذاك إلا لكثرة من أخذ عنه، وهذا ما تفيده عبارات من ترجمه من العلماء، ومن ذلك قول العلامة علي بن حسن العطاس في ترجمته: ((وأقبل عليه عالم لا يحصى، وتخرج به جماعات من أهل دوعن وغيرهم، وقصده الناس من كل ناحية من أهل حضرموت وغيرها من السادة القادة آل أبي علوي وسائر الناس))[٤]، وفي موضع آخر قال: ((وقد أخذ عن الشيخ علي المذكور غالب الذين أخذوا عن شيخه سيدنا عمر))[٥].

وقد تقدم قريباً أنه مارس الدعوة والتعليم ببعض بلدان وادي عمد كعلط وقرن المال وغيرها، وإذا علمت أنه استمر داعياً إلى الله بوادي دوعن مدة تسع

---

(١) ينظر صـ(٧٤).

(٢) ينظر ترجمة الحبيب علي بن حسن، صـ ٥.

(٣) أي وقع عليك نظر من أولياء الله فقربوك به وأدنوك من حضرة الله وهو المشار إليه بقول أبي مدين رحمه الله تعالى:

وراقب الشيخ في أحواله فعسى ... يرى عليك من استحسانه أثرا

(٤) ترجمة الحبيب علي بن حسن (صـ ٧).

(٥) المصدر السابق (صـ ٢١).

وأربعين سنة تعلم كثرة الآخذين عنه في هذه المدة الطويلة التي تعادل نصف قرن تقريباً.

ولا ننسى أنه قد أقيم في محراب النيابة الصوفية في تلقين الذكر على طريقة شيخه الإمام عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى وشيخه على قيد الحياة، فكان شيخه يحمل كل من التمس منه التحكيم والذكر على أن يذهب إلى الشيخ علي رحمه الله تعالى، وبهذا يتحقق ما قاله عنه أهل التراجم من أن غالب من أخذ عن شيخه أخذ عنه فليعلم.

وإليك مجموعة من مشاهير تلاميذه:

١- أولاده محمد وأحمد وعبد الله وعبد الرحمن وعمر رحمهم الله تعالى وجميعهم أعقبوا ذرية، وقد أشار إلى دورهم الاجتماعي السيد علوي بن طاهر الحداد رحمه الله تعالى في (الشامل) بقوله: ولذريته – أي الشيخ علي – بالخريبة مقام ولهم وجاهة عن قبائل نوح[1] وهم من شيوخ العلامة علي بن حسن العطاس، ولهم ذكر في مؤلفاته وديوانه (قلائد الحسان وفرائد اللسان).

٢- السيد العارف الحسين بن عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى وجميع إخوته وبعض أبناءه وسنذكر بعضهم.

٣- السيد الحبيب عبد الله بن الحسين بن عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى.

٤- السيد الحبيب محسن بن حسين بن عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى المتوفى سنة (١١٤٨هـ).

---

(١) ينظر (الشامل) صـ ١٤٠.

٥- السيد الحبيب حمزة بن حسين بن عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى، وكان فاضلاً عالماً ناسكاً جليلاً، أخذ أيضاً عن والده، والحبيب أحمد بن زين الحبشي، توفي بالخريبة سنة (١٢١١هـ)[١].

٦- السيد العارف الإمام عيسى بن محمد الحبشي رحمه الله تعالى توفى سنة (١١٢٥هـ) ببلاد خنفر بوادي عمد.

٧- الشيخ العلامة محمد بن أحمد بامشموس المتوفى بالقرين سنة (١١٢٥هـ).

٨- الشيخ العارف عبد الله بن عمر باعُباد الدوعني صاحب الدوفه، وقد لازم الشيخ علي متلقّياً عنه لأصناف العلوم ثلاثين سنة[٢]، وقد أفرد شيخه بترجمة نقل عنها السيد العلامة علي بن حسن العطاس فقرات وضمنها ترجمته التي لخصنا منها هذه النبذة المختصرة، وذكر السيد عبدالله بن علوي العطاس أنه قرأ على الشيخ علي كتاب (الإرشاد) لابن المقرئ في الفقه، ثم أمره شيخه السيد عمر بأن يُقرئه في كتاب (المنهاج) للإمام النووي لأن مؤلفه فقيه وقطب وعباراته أحرى بالفتح فامتثل لذلك وفُتح على باعُباد بعد ذلك[٣].

٩- الشيخ سهل بن الشيخ إسحاق بن الشيخ أحمد بن سهل رحمه الله تعالى.

١٠- السلطان علي بن بدر الكثيري رحمه الله تعالى.

١١- الشيخ عبد الله بن عثمان العمودي رحمه الله تعالى.

١٢- الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله بن عفيف الهجراني رحمه الله تعالى.

---

(١) ينظر (الشامل) صـ ١٤٣.

(٢) ينظر ترجمة الحبيب علي، صـ ٢٥.

(٣) ينظر ظهور الحقائق صـ (٧٤).

١٣- الشيخ محمد بن وجيه بن عبد الله بن عفيف الهجراني رحمه الله تعالى.

١٤- الشيخ عبد الله بن أحمد باهرمز رحمه الله تعالى.

١٥- الشيخ أحمد بن عبد الله بن أحمد باهرمز رحمه الله تعالى وهو ولد المتقدم.

فهؤلاء مجموعة من تلاميذه ذكرهم السيد علي بن حسن العطاس في ترجمته باستثناء السيد الحبيب حمزة بن حسين بن عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى، فقد ذكره المؤرخ العلامة علوي بن طاهر الحداد في كتاب (الشامل) نقلاً عن (فيض الأسرار).

نماذج من حكمه وأقواله:

عند القراءة في كتاب (الروضة الخضراء) تتوالى على المطالع أنواعاً من الحكم وسديد الأقوال ورائقها يوردها الشيخ غضة طرية من فيوضات الحضرة الإلهية، فأحببت إيرادها هنا جامعاً لأشتاتها، وباسطاً لشهي سماطها، لترتوي من معينها الأرواح وتتغذى من صافي يقينها الأسرار فمنها:

قوله نفع الله به في تعريف الفقراء: ((الفقراء هم المتلاشون بلمعان أنوار الذات، المتمكنين من حقائق الأسماء والصفات، لهم في كل موطن من مواطن الطريق، وعلم من علوم التحقيق، القدم الراسخ، لا يحجبهم فرق عن جمع، ولا جمع عن فرق، ولا حق عن خلق، ولا خلق عن حق، فهم أعرف الرجال بأنساب الحقائق، وأوثق الخلق بحفظ الأحوال ومعرفة الطرائق، وأقوم الرجال لمعالم الشرائع، وأبعد الخلق عن الطامات والخوارق.

وقال: لا يصل سالك إلى مقصد الإرادة إلا بصحبة أهل الله وملازمتهم واستنشاق لطيف أخلاقهم واستنشاق عطر أنفاسهم.

وقال: من سلك الطريق بغير دليل لا يحصل منه نائل بل إن ظهر فهو شجر بلا ثمر.

وقال: الشيخ طريق إلى الله ومعراج إلى حضرة الله.

وقال: الوقت أشرف ما يبذله المريد في طلب المزيد.

وقال: أجل ما يعين على إدامة الحضور اجتناب التواني والفتور.

وقال: بالحضور ترفع الستور.

وقال: بالمحبة تحصل المعية، وبالمعية تنطوي الأينية.

وقال: بإدامة الحضور تنشرح الصدور.

وقال: لزوم الصمت ملاك دين الشخص في سائر الأحوال.

وقال: لا أعون على الأدب من الصمت، الصمت سلامة من الخطأ وأبعد من الندامة.

وقال: التواضع شأن أهل الدين، وحلية المريدين، وشعار أهل اليقين، والأئمة الصديقين.

وقال: المنة لمن سترك، لا لمن شكرك.

وقال: التواضع: هو أن تعرف ما أنت عليه وما هو لازم طبيعتك مما أنت عليه من قبائح الذنوب وفظيعات العيوب.

وقال: من يفرغ عن سكر تأهيله وسيره إلى رؤية عيب في غيره.

وقال: حط رأس رئاستك مع الاعتراف بإساءتك وعظيم جنايتك، واستغفر لما هو لازم جبلتك، ومتأصل في أصل خلقتك، لأنك كما قد علمت مأمور نفسك الأمارة بالسوء، ومقهور تحت شهوتك.

وقال: الاستغفار شأن السادة الأبرار.

وقال: حط الرأس هو نهاية الاعتذار، وغاية الانكسار، وظهورية الافتقار والاضطرار.

وقال: الفقراء هم أبواب عطايا الحق، وبهم تنزل الأقوات على سائر البريات.

وقال: كل مدع اليوم وغدا يؤول إلى الردى، ويطالب بحقيقة ما ادعى.

وقال: من ألف التبرم بأوامر الأشياخ كان بأوامر الله كذلك.

وقال: التضجر والملل دأب أهل البطالة والعلل، والدأب على الاجتهاد صفة أهل الوداد والجهابذة الأمجاد.

وقال: كل مريد يمزج إرادته بهزل، أو يشوب عزيمته بفتور، أو يكون له مراد غير الله، فلابد أن يرجع إلى ما منه خرج.

وقال: كلام أهل الله عن إذن وكشف لا عن تخمين وحدس.

لمحة عن أسلوبه في التأليف ومؤلفاته(١):

بما أن الشيخ علي من أكابر العارفين فقد كانت جميع مؤلفاته منحصرة في علم التصوف، وجميعها تمتاز برصانة العبارة ودقيق الإشارة، فهي في غالب مضامينها من فيوضات العلم الوهبي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ [الكهف: ٦٥] وقد أشار إلى هذه الحقيقة تلميذه الحبيب العارف عيسى بن محمد الحبشي رحمه الله تعالى في ترجمته

(١) ينظر ترجمة الحبيب علي بن حسن العطاس صـ(٣٧-٣٩)، ومصادر الفكر صـ(٣٢٤).

حينما قال: ((وكان له اليد الطولى في الكلام على لسان السادة الصوفية العارفين نظماً ونثراً))[1]، وقد تكلم الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى عن طريقته في التأليف حينما قارن بين شرحه على (الحكم العطائية) وشرح الشيخ ابن عباد فقال: ((رأيته كثيراً يذكر جليات المنقول وواضحات المعقول، وأما أنا فأنتظر ما يلقى في الفؤاد من فيض الوداد فآخذ بلا تقليد))، وقال في مقدمة (الروضة الخضراء) مبيناً لحالته عند العزم على شرح قصيدة أبي شعيب رحمه الله تعالى فقال: ((ولكني أرجو أن يتفضّل المولى الكريم بما هو أهله من إفاضة الفضل العميم، على ما يوضّح المراد من ذلك، ويكشف للمسترشد بعض ما هنالك، وذلك بعد الاستخارة وظهور الإشارة، إلى التلويح بالسفارة، ونيل البشارة، وإعطاء اللسان زمام العبارة، وأنا عن ذلك متبرٍ عن الحول والقوة ، لا نطق لي إلا به ، ولا سمع لي إلا عنه، ولا نظر كذلك ، ولا بطش ولا عقل، ولا شي، إيماناً وتصديقاً به)).

فهو هنا يشير إلى أسلوبه في الشرح من أنه فيض خالص في غالبه وهو ما تؤكده عبارة وإعطاء اللسان زمام العبارة وما بعدها، وهذا لا يمانع أنه يعتمد في بعض أحيانه على جليات المنقول كما ستلاحظ في هذا الشرح من نقله عن الإمام الغزالي وغيره، ولكنه أراد أن يشير إلى غالب طريقته في التأليف، ومن الملاحظ في طريقة تأليفه أيضاً أنه حتى في النقل مثلاً لا ينقل النص حرفياً وإنما يذكر فحواه وخلاصته ويحيل على موطن التفصيل، ومثال هذا قوله في (الروضة الخضراء) بعد ما ذكر مقاصد الصحبة: ((وهذه الصحبة أشار إلى بعض مقاصدها الإمام الغزالي نفع الله به)) .

---

(١) المرجع السابق صـ١٠.

ومن ذلك أيضاً ما يلمح من توافقه مع الإمام ابن عطاء الله السكندري في بعض فقرات شرحه – وهو الشرح المنسوب أيضاً للشيخ ابن علان – على قصيدة العارف شعيب أبي مدين رحمه الله تعالى حيث أن ابن عطاء الله رحمه الله تعالى أورد عند شرحه للبيت الذي يقول:

وإن بدا منك عيب فاعترف وأقم ... وجه اعتذارك عمّا فيك منك جرى

أورد أثراً يقول: ((**أنين المذنبين عند الله خير من زجل المسبّحين**)) وأورد الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى نفس الأثر عند شرحه لنفس البيت، ولكن بمعناه مما يلمح إلى أنه اطلع على هذا الشرح وتأثر ببعض عباراته فساقه بالمعنى فقال: ((فإن أنين المذنبين يفضل تسبيح المسبّحين)) كما ورد بمعناه، وهذه الحقيقة التي قدّمناها ليست حدساً محضاً وإنما حقيقة يقينية؛ لتكرر التشابه في مواضع متفرّقة بين شرح ابن عطاء الله وباراس رحمهما الله تعالى.

ومنه أيضاً إيراده لحديث: ((**المرء مع من أحب**)) عند شرحه لبيت:

أحــبهم وأداريهــم وأوثــرهم ... بمهجتي وخصوصاً منهم نفرا

وإيراد ابن عطاء الله لنفس الحديث عند شرحه للبيت السابق، هذا بالإضافة إلى التشابه الكبير في منهجية الشرح فنفس المنهج الذي اختطه ابن عطاء الله في شرحه سلكه الشيخ علي باراس في شرحه أيضاً، فقد سلك الأول شرح الأبيات معتمداً على المزج بين كلام أهل التصوف وعباراتهم وسجعهم وحكاياتهم مدعماً له بالآيات والأحاديث والحِكَم، وقبل أن ينتقل إلى شرح البيت الثاني يربط بين مفهومه ومفهوم البيت أو الأبيات التي تليه؛ حفاظاً على وحدة الفكرة والموضوع، وهذا ما سلكه أيضاً الشيخ علي باراس في شرحه.

وقد يكون هذا التشابه من وضع الحافر على الحافر وليس ذلك ببعيد، ومما تجدر الإشارة إليه وجود هذا التشابه في مواطن متعددة وهو إن لم يكن حرفيا إلا

أنه يوحي بأنه قد اطلع على شرح الشيخ المذكور، وهذا تجده جليا حينما تقارن بين شرحهما للبيت الذي يقول:

مَنْ لي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ ... عَلَى مَوَارِدَ لَمْ آلَفِ بِهَا كَدَرَا

فإنهما اتفقا في إبراز المعنى وهو أن الشيخ يشير إلى أنه منهم بقوله:

هُمْ أَهْلُ وَدِّيْ وَأَحْبَابِي الَّذِيْنَ هُمُو ... مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيُوْلَ العِزِّ مُفْتَخِرَا

فقال ابن عطاء: وفي هذا الكلام إشارة إلى أنه رضي الله تعالى عنه من جملتهم[1]، وقال الشيخ علي: ومع ذلك لم يدعها ولكن ترجم عن لسان حاله بمقال حيث قال: أحبهم وأداريهم ... ولطيف العبارة أن يفهم المراد من غير تصريح، بل بالتعريض ولطيف القريض.

فيستفاد من جميع ما ذكرناه أن مؤلفات الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى وإن كانت في غالب مضمونها قائمة على الواردات الإلهية إلا أنه يقتبس ويستخلص بعض عبارات من الكتب السابقة في المواضيع ذات الصلة بمؤلفاته، كما تلاحظ شدة استحضاره لدقائق المعلومات والمفاهيم الصوفية التي استبطنها كتاب (الرسالة القشيرية) وكتاب (إحياء علوم الدين) و(عوارف المعارف) وغيرها من كتب التصوف، مما يدل على كثرة مقروءاته في هذا الفن الذي تضلع فيه وعاشه حقيقة لا صورة، فتشرّب عقله أسس هذا العلم، حتى صار يستحضرها من غير حاجة إلى مراجعة كتاب؛ لأنها صارت جزءاً منه وصار حقيقة جامعة لجميع ما فيها.

ومع جميع ما ذكرناه لا ننسى أن نذكر بأن مؤلفات الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى امتازت بصفات لم توجد في الكتب الأخرى التي تناولت نفس

---

(١) ينظر شرح قصيدة لذة العيش طباعة دار التقوى، صـ ٥٥.

موضوعه، فأنت إذا تأملت في (الروضة الخضراء) وجدت فيها بسطاً دقيقاً وواسعاً لمعاني أبيات أبي مدين رحمه الله تعالى لا تجده في شرح ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، كما نجد ذلك البسط النادر والتوسع العزيز في شرح الحكم أيضاً، حتى قال شيخه الإمام عمر بن عبد الرحمن العطاس رحمه الله تعالى عن هذا الشرح: ((إن الحكم العطائية عذراء لم يفتضّها إلا هذا الشرح))، وما وصلنا من مؤلفات الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى هو الشاهد الحقيقي على سعة علوم ومعارف هذا الإمام الراسخ، ولقد كانت العلوم تزدحم في صدره، حتى أنه تمنى في آخر أيام حياته أن يكتب شرحاً عظيماً على كتاب (بداية الهداية) للإمام الغزالي رحمه الله تعالى، ولكن داهمته المنية قبل حصول الأمنية، وقد ذكر تلميذه الشيخ عبد الله باعباد رحمه الله تعالى في ترجمته أن شيخه كان يقول: ((لو يفسح الله لي في الزمان ويساعدني الوقت والأوان لأشرح شرحاً فائقاً على كتاب (بداية الهداية) للغزالي ونُبدِي فيه علوم الشريعة والطريقة والحقيقة ويكون في مجلدات عديدة، لكن لا يسمح الوقت بذلك، فلقد قصرت المدة وقربت النقلة ...)).

وبعد هذه الإطلالة الموجزة عن طريقة التأليف عند الشيخ علي باراس رحمه الله تعالى ومميزاتها إليك مؤلفاته كما ذكرتها المصادر والمراجع المترجمة له:

١- (شرح الحكم العطائية)، وهو شرح على حكم ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى المتوفى سنة (٧٠٩هـ)، وهو شرحان: صغير في مجلد، وكبير في مجلدين، ويسميها البعض: (شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم).

٢- (مشكاة الفكر في حقائق الذِّكر)، أو (مشكاة الأفكار في حقائق الأذكار).

٣- (فتح الوهاب في كلام السادة الأحباب)، وهو شرح كلمات السيد الحسين ابن الشيخ أبي بكر بن سالم المتوفى سنة (١٠٤٤هـ) رحمه الله تعالى.

٤- شرح قصيدة أبي بكر العدني بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة (٩١٤هـ) رحمه الله تعالى والتي أولها:

ما حُسن يُعشق غير حسن لبنى ... ما مثلها محبوب

ولا جمال يُذكر بكل معنى ... إلا لها منسوب

٥- (شرح همزية ابن خمرطاش): وهو أبو الحسن ابن خمرطاش الزبيدي المتوفى سنة (٥٥٤هـ)[1].

٦- (تنبيه الغافل وترقي الواصل): وهو شرح راتب شيخه الإمام عمر بن عبدالرحمن العطاس رحمه الله تعالى.

٧- (الروضة الخضراء والدرة الزهراء في كشف معاني ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء) **وهو هذا الكتاب.**

٨- (شيم الحس الأنيق): وهو شرح علىَ قصيدة الشيخ العارف عبد الله بن عمر بامخرمة المتوفى (٩٥٤هـ).

٩- نبذة في آداب الذكر وشروطه، وآداب التلقين وطريق أهله وما اصطلحوا عليه في ذلك.

١٠- (وصايا جامعة).

١١- شرح على قصيدة الشيخ العارف عبدالهادي السودي المتوفى سنة (٩٣٢هـ) رحمه الله تعالى التي مطلعها:

ليس عند الخلق من خبر ... عنك يا أغلوطة الفكر

١٢- مولد نبوي شريف.

---

(١) ينظر (الأعلام) للزركلي ٣/ ١٣٧.

١٣- له تخميسات على بعض قصائد السودي مثل:
(حي العقيق) و (يا مقعد العزمات)

١٤- له نظم صوفي رائق أودعه مصنفاته ومنه تائيته العظيمة.

إشارة إلى بعض صفاته وشمائله:

قال السيد العلامة علي بن حسن العطاس رحمه الله تعالى: ((وأخبرني غير واحد ممن رآه وعاصره أن الإنسان إذا رآه يمتلئ قلبه من هيبته وجلالته، قالوا: وقد رأينا جملة من الأولياء واعتقدناهم بحسن الظن، وأما الشيخ علي بن عبد الله باراس رحمه الله تعالى فلا يشك ناظره بديهة حال رؤيته في ولايته لما عليه من الهيبة والجلالة؛ لأنه يبهره بأنواره ويقهره بعجائب أسراره))[١].

وقال عنه تلميذه السيد العارف عيسى بن محمد الحبشي رحمه الله تعالى: ((وكان رضي الله عنه ونفع به كائناً بائناً، متصلاً منفصلاً، بلغ ذروة الكمال، ونال رتبة الرجال من العلماء العاملين والأفاضل المشمرين العارفين، لا تأخذه في الله لومة لائم، قوالاً بالحق، يصدع بذلك في نحور الظلمة من الملوك والأمراء فمن دونهم، يباشر نهي المنكر والأمر بالمعروف بيده، وذلك لأنه بلغ أعلا درجات الإيمان، فكان لا يشهد إلا الله في جميع الأحوال، ولا تحركه حوادث الأهوال))[٢].

---

(١) ترجمة الحبيب علي، صـ ٢.
(٢) ترجمة الحبيب علي، صـ ١٠.

وفي موضع آخر قال: ((وكان بشاشاً بالزائرين مكرماً للوافدين، وله حضرات محضورات، وجموعات متبوعات ... وكان أورع أهل زمانه وأوحد الناس في الورع، حتى لا يقبل شيئاً إلا ما تحقق حله))(١).

أما تلاوته للقرآن فكان الشيخ علي رحمه الله تعالى إذا قرأ القرآن قل أن يسمع قراءته أحد إلا ويخشع لإخلاصه وحسن صوته، وكان إذا قرأ القرآن في مسجد سليمان المبارك المشهور ببلاد الخريبة رفع به صوته وأحسن في ترتيله حتى يسمعه من في بلاد الرشيد، فتخشع قلوبهم عند سماع ذلك وتطرب أرواحهم من هيبة ذلك الكلام وجلاله))(٢).

وقال أيضاً: ((وكان مجلسه محفوفاً بالنور لا تذكر فيه الدنيا أصلاً، وله مذاكرات مليحة في أصناف العلوم تطرب السامعين فتراهم لها خاشعين ومن تأثيرها دامعين قل أن تسمع من غيره لطراوتها وعظيم حلاوتها، وقد كان معمور الأوقات بأصناف الطاعات من حين نشأ وهو على ذلك لا يخلو له وقت إلا في خير))(٣).

فتأمل هذه الشمائل العظيمة تدرك عظمة هؤلاء الرجال وعلو مقامهم.

وفاته:

بعد عمر مبارك أمضاه في طاعة الله ورضاه ناداه منادي الحمام فلبّاه، فصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى في يوم الأربعاء وذلك في شهر ربيع الأول (١٠٩٤هـ) وعمره سبعاً وستين سنة فعليه رحمة الله ورضوانه، فقد كان إماماً راسخاً وعلماً نادراً وعبقرياً فذاً من أفذاذ العلماء الحضارمة.

---

(١) المصدر السابق، صـ١٣.

(٢) المصدر السابق، صـ١٧.

(٣) المصدر السابق، صـ١٧ — ١٨.



الروضة الخضراء والدرة الزهراء

في كشف معاني

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء

تأليف الشيخ العارف

علي بن عبد الله باراس

نفع الله به آمين

((١٠٢٧ — ١٠٩٤هـ))

قصيدة الشيخ شعيب أبي مدين

١- مَـا لَـذَّةُ العَـيشِ إِلَّا صُـحْبَةُ الفُقَـرَا هُمُ السَّلَاطِيْنُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَرَا
٢- فَاصْــحَبْهُمُ وَتَــأَدَّبْ فِي مَجَالِــسِهِمْ وَخَـلِّ حَظَّـكَ مَهْـمَا قَـدَّمُوكَ وَرَا
٣- وَاسْتَغْنِمِ الوَقْتَ وَاحْضرْ دَائِماً مَعَهُـمْ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرَا
٤- وَلَازِمِ الـصَّمْتَ إِلَّا إِنْ سُئِلْتَ فَقُـلْ لَا عِلْمَ عِنْدِيْ وَكُنْ بِالجَهْـلِ مُسْتَتِرَا
٥- وَلَا تَـرَ العَيْــبَ إِلا فِيْـكَ مُعْتَقِـداً عَيْبَــاً بَــدَا بَيِّنَــاً لَكِنَّــهُ اسْــتَتَرَا
٦- وَحُـطَّ رَأْسَـكَ وَاسْتَغْفِرْ بِـلا سَبَبٍ وَقُـمْ عَـلَى قَـدَمِ الإِنْـصَافِ مُعْتَـذِرَا
٧- وَإِنْ بَـدَا مِنْـكَ عَيْـبٌ فَاعْتَـذِرْ وَأَقِـمْ وَجْهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيْكَ مِنْكَ جَرَى
٨- وَقُــلْ عُبَيْــدُكُمُ أَوْلَى بِــصَفْحِكُمُ فَـسَامِحُوا وَخُـذُوا بِـالرِّفْقِ يَـا فُقَـرَا
٩- هُـمْ بِالتَّفَـضُّلِ أَوْلَى وَهْـوَ شِـيْمَتُهُمْ فَـلَا تَخَـفْ دَرَكَـاً مِـنْهُمْ وَلَا ضَرَرَا
١٠- وَبِالتَّفَتِّيْ[1] عَـلَى الإِخْـوَانِ جُـدْ أَبَـدَاً حِسَّاً وَمَعْنًى وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا
١١- وَرَاقِـبِ الـشَّيْخَ فِي أَحْوَالِـهِ فَعَـسَى يَـرَى عَلَيْـكَ مِـنِ اسْتِحْـسَانِهِ أَثَـرَا
١٢- وَقَـدِّمِ الجِـدَّ وَانْهَـضْ عِنْـدَ خِدْمَتِـهِ عَسَاهُ يَرْضَى وَحَاذِرْ أَنْ تُرى ضَـجِرَا
١٣- فَفِـيْ رِضَـاهُ رِضَـا البَـارِيْ وَطَاعَتِـهِ يَرْضَى عَلَيْكَ فَكُنْ مِنْ تَرْكِهِ حَذِرَا
١٤- وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ طَرِيْـقَ القَـوْمِ دَارِسَـةٌ وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيْهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَرَى

(١) وفي نسخة: وبالتغني من الإغناء.

١٥- مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِمْ ... أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّيْ عَنْهُمُ خَبَرَا
١٦- مَنْ لِي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ ... عَلَى مَوَارِدَ لَمْ أَأْلَفِ بِهَا كَدَرَا
١٧- أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيْهِمْ وَأُوْثِرُهُمْ ... بِمُهْجَتِي وَخُصُوصاً مِنْهُمُ نَفَرَا
١٨- قَوْمٌ كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا ... يَبْقَى الزَّمَانُ عَلَى آثَارِهِمْ عَطِرَا
١٩- يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ طَرَفاً ... حُسْنُ التَآلُفُ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا
٢٠- هُمْ أَهْلُ وَدِّيْ وَأَحْبَابِي الَّذِيْنَ هُمُو ... مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيُوْلَ العِزِّ مُفْتَخِرَا
٢١- لا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعَاً ... وَذَنْبُنَا فِيْهِ مَغْفُوراً وَمُغْتَفَرَا
٢٢- ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا ... مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَنْ وَافَى وَمَنْ نَذَرَا



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

[وبه الاستعانة][1]، الحمد لله الذي نصب أعلام الطريق، وأبان عن معالم التحقيق، وجعل أول قدم في هذه الطريق صحبة الرفيق، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الرفيق ثم الطريق**»[2]، فرتب سلوكه على الصحبة، ودوامه على المحبة، والصلاة والسلام على إمام عصابة الأنبياء، وقائد ركب الرسل والصديقين والشهداء، محمد وآله وصحبه نجوم الهدى ومصابيح الإقتداء، وعلينا معهم وسائر الأحبة في الله ممن سلف أو خلف ممن شملته دائرة الاصطفاء.

وبعد:

فإنه طالما خطر لي أن أخدم القطب الشهير والعلم المنير، الذي شاعت إشاراته وفاضت عباراته، وانتشرت لباساته في أقطار الأرض، وفاح عبير نفحاته في الطول والعرض، وانقاد لأحكامه أكابر الأولياء، وتلقى كلماته خواص الأصفياء، وذلك الشيخ العارف بالله، والداعي على بصيرة إلى طريق الله، الناصح لسائر خلق الله، أبي مدين شعيب نفع الله به وبعلومه وفائضات فهومه، بتعليقة على نَفَسِهِ العالي، ودرياقه[3] الغالي، المشير إلى نفائس الآداب

---

(١) زيادة من (ج).

(٢) جاء في الحديث «**التمسوا الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار**» أخرجه الطبراني في الكبير وابن أبي خيثمة وأبو الفتح الازدي والعسكري في الأمثال والخطيب في الجامع حديثا طويلا في آخره «**الجار ثم الدار، الرفيق ثم الطريق**» وهو عند الخطيب في جامعه باختصار ولفظه «**الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، والزاد قبل الرحيل**» وللخطيب أيضا بلفظ «**قريب**» قال السخاوي: وكلّها (أي الطرق) ضعيفة ولكن بانضمامها تقوى. ينظر (المقاصد الحسنة) الحديث رقم (١٦٣)، و(كشف الخفاء) للعجلوني الحديث رقم (٥٣١).

(٣) الدرياق والترياق بالكسر: الدواء، وهو رومي معرب ويجوز إبدال التاء دالاً وطاء لتقارب المخارج. ينظر (القاموس) مادة ثبق، صـ١١٢٤، و(المصباح المنير) صـ٤٩.

وعليِّ الأحوال، وشوامخ بواذخ مقامات الرجال، وذلك على حسب قصوري وتخلفي عن ذلك الشأو الرفيع، والمقام العالي المنيع ، ولكنني أرجو أن يتفضل المولى الكريم بما هو أهله من إفاضة الفضل العميم، على ما يوضح المراد من ذلك، ويكشف للمسترشد بعض ما هنالك، وذلك بعد الاستخارة وظهور الإشارة، إلى التلويح بالسفارة، ونيل البشارة، وإعطاء اللسان زمام العبارة، وأنا عن ذلك متبرٍ عن الحول والقوة، لا نطق لي إلا به، ولا سمع لي إلا عنه، ولا نظر كذلك، ولا بطش ولا عقل، [ولا شي][(١)]،إيماناً وتصديقاً به؛ لأنه كائن في العين لا حادث في الأين، فما بين الخلق وبين ذلك إلا البين، كما صرح به الحديث في قوله: [«كنت»[(٢)] ومعناه الماضي][(٣)] فافهم، وكلام أهل الله عن إذن وكشف[(٤)]، لا عن تخمين وحدس[(٥)]، وما يقررون من منظوم أو منثور إلا للدلالة على هداية ما فيه إرشاد العباد، وإصلاح الفساد، فكلامهم أجل عن أن يكون للتفرج أو للتهرج[(٦)]، بل هو حق عن حقيقة، وهداية إلى مقصد وطريقة، فليتأمل ما صرحوا ، وينظر ما لوحوا[(٧)]، وليكشف[(٨)] عن ما مالوا إليه وموهوا، فإن

---

(١) في الأصل: ولا وشي.

(٢) يشير بذلك إلى أثر متداول بين الصوفية وهو: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً فبي عرفوني**» ونص الحفاظ كالزركشي والحافظ ابن حجر والسيوطي والسخاوي وغيرهم على أنه لا أصل له، وقال القاري: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليعرفوني كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما. ينظر (كشف الخفاء): ٢/ ١٧٣، الحديث: ٢٠١٦، و(المصنوع) صـ ١٤١، الحديث: ٢٣٢.

(٣) زيادة من (ج).

(٤) الكشف هو: الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية ، والأمور الخفية الحقيقية وجوداً أو شهوداً. ينظر: (التعريفات) صـ١٥١، و(التوقيف على مهمات التعاريف) صـ٦٠٤.

(٥) التخمين: التوهم في معاني الكلام والأمور، والحدس: الظن، وخمن الشيء: قال فيه بالحدس أو بالوهم.

(٦) التهرج: الإكثار في الحديث والإفاضة فيه.

(٧) التلويح الإشارة في فحوى الكلام من غير تصريح. ينظر: (التوقيف) صـ٢٠٣.

(٨) في (ب) وليكتفِ.

طريقهم مؤسس على الكتاب والسنة، كما رُوي عن الجنيد بن محمد[(١)] رضي الله عنه، فإنهم لا ينطقون فيما نطقوا، ولا يتصرفون[(٢)] فيما فعلوا، إلا على القواعد السُّنِّيَّةِ الفائضة من الوحي الإلهي، فمن هاهنا حصل الكشف عن المراد في العلم القديم، وتجلى لهم من مظهر اسمه العليم، فتمكنوا من نواحي المعاني، وظهرت أسرار الكلمات من وراء أسجاف[(٣)] الأواني، فعلموا ما جهله غيرهم من ذلك، فأوصلوا إلى [أفهام][(٤)] العموم ما يفقهون من معاني العلم المكنون[(٥)]، بعبارات منظومة وإشارات مفهومة، فجزاهم الله عن الخلق خيراً.

ولي في ذلك شعراً[(٦)]:

مِنْ غَيْبِ غَيْبِ غُيُوبٍ عَنْهُمْ ظَهَرَتْ ... لِلخَلْقِ أَسْرَارُ نُورِ الحَقِّ مُشْتَهَرَا
كَأَنَّ صُورَةَ ذَاكَ البَدْرِ مَا نَظَرُوا ... فِي الزُّجَاجِ وَصَافِي المَاءِ حِينَ يُرَا

---

(١) هو سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، قال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه، توفي سنة (٢٩٧هـ)، من أقواله: من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء، يأخذ أدبه عن المتأدبين، أفسد من اتبعه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] وقال: «لو رأيتم الرجل قد تربع في الهواء، ومشى على الماء، فلا تلتفتوا إليه حتى تنظروه عند الأمر والنهي، فإن كان عاملاً بالأمر، مجتنباً لما نهى عنه فاعتقدوه» ينظر (سير أعلام النبلاء) ١٤/ ٦٦، و(الأعلام) للزركلي ٢/ ١٤١، و(الطبقات الكبرى) للمناوي ١/ ٥٧٠.

(٢) في (ب) ولا ينصرفون.

(٣) السَّجْفُ في اللغة: الستر وجمعه سجوفٌ وأسجاف، والمعنى المراد: أظهروا حقائق العلوم الذوقية العرفانية من وراء الحجب الجسمانية الحسية. ينظر: (القاموس) صـ١٠٥٧، مادة سجف بتصرف وزيادة.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) فيه إشارة إلى ما رواه الديلمي في مسند الفردوس والسلمي في (الأربعين) والطيبي في (الترغيب) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل العزة بالله**» والحديث حسن كما أفاد ذلك الحافظ أحمد بن الصديق في (عواطف اللطائف) ٢/ ٧٦٤، الحديث: ٥٧١.

(٦) سقطت هذه الفقرة من (أ).

ثم [إن][1] النظم فيه إيصال للمعاني إلى ما النفوس مجبولة عليه من الميل إلى المنظوم أكثر من ميلها إلى المنثور، لما فيها من الروحانية الأقربية إليها الجنية[2]؛ لأنها أقرب إلى الأجسام في الرتبة من غيرهم من الأرواح، وطبائعهم مائلة إلى النظم، فلذلك تلطف[3] أهل الله إلى تحقيق نصائحهم وفوائدهم إلى النفوس بالنظم، ليوصلونهم إلى الله بما تقتضيه نفوسهم وترتاح إليه عقولهم، فلذلك كثرت منهم الأنفاس المنظومة، وطرّزوا بها كلامهم تلطفاً منهم إلى النفوس ليقتنصوها لذلك، وذلك كان السبب في نظم هذه الحكمة العجيبة والنكتة[4] الغريبة.

ولما كان الأصل في الصحبة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((**المرء على دين خليله**))[5]، وكان أول من شرع الصحبة لتحقيق الإتباع، وحصول كمال الانتفاع، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلذلك حقق الله في كتابه صحبة أكمل الأصحاب، فقال جل ذكره في شأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث نوّه بكمال أنسه، وخروجه عن أبناء جنسه، واستغراق جميع لطائفه وحسه، بمحوه[6] في فعال قدسه، فقال في ذلك الموطن الشريف، والمشهد المنيف: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فاستغرقتُ المعية

---

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) كذا في الأصل وفي (ب) الجنسية.

(٣) في الأصل: تلطفوا، وهو من باب أكلوني البراغيث.

(٤) النكتة: هي مسألة لطيفة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر، من نكت رمحه بالأرض، إذا أثرفها، وسميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثر الخواطر في استنباطها. ينظر (التعريفات) صـ١٩٨، و(التوقيف) صـ٧١٠.

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب (الأدب)، باب من يؤمر أن يجالس، الحديث رقم ٤٨٢٣، (عون المعبود بشرح سنن أبي داود) ١٣/ ١٢٣، والترمذي في كتاب الزهد الباب (٤٥)، ٣/ ٣٢٠، الحديث رقم (٢٣٧٨).

(٦) المحو: هو اجتناب أوصاف النفوس، فالشخص الذي اجتنب الأوصاف المذمومة وتبدل بها الصفات المحمودة فهو صاحب محو وإثبات، قال الإمام القشيري يمحو عن قلوب العارفين ذكر غير الله تعالى، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله. ينظر: (الرسالة القشيرية) صـ١٥٥.

الصاحب كما استغرقت المصحوب، وظهر الرب في رفعة خالص عبودية المربوب، حققنا الله بذلك ، وغيره من الأصحاب آخذين في طريق تلك الصحبة، وكل منهم حظه على قدر استعداده لها، والاستعداد على قدر ما قسم من الحظوظ الخفية، والأنصباء القربية.

أنواع الصحبة

والصحبة إمّا حسية وإمّا معنوية، وإما خفية وإما خلقية، وإما روحية وإمّا صورية، فأرفع مقام فيها الصحبة مع الله، ثم الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم الصحبة مع أولياء الله وملائكة الله، ثم الصحبة مع خلق الله.

فالصحبة مع الله: هي لزوم التوحيد له في الذات والصفات والأفعال [والأقوال][1]، ومجالسة كتابه بالأدب والتذكر والتدبر لآياته ، ومجالسة كل آية منه بما يليق بها، من تنزيه، أو تعظيم، أو بشارة ، أو نذارة ،أو رهبة، أو رغبة، أو خوف، أو رجاء، أو ائتمار، أو انزجار، أو تبصر، أو اعتبار، أو غير ذلك مما تقتضيه الآي والكلم، والحروف والإشارات ،فمن صحب الله على هذا النمط استغرقته لا محالة أنوار المعية الخاصة .

ثم الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بأن تكون جليسه في مجالستك لسنته، وصحبتك لأهل بيته، ومحبة أصحابه والثناء عليهم رضي الله عنهم أجمعين ، والقائمين على محجته وشريعته، والنصيحة لأمته عموماً وخصوصاً، ولا تُنَازِع الأمر أهله، ولا تعمل برأي دون ما شرعه أو شرعه أحد من صحابته، والمجتهدين الراشدين من خلفائه.

وصحبتك للأولياء: بالمحبة لهم وامتثال أمرهم، والاحترام لهم والسعي في مراضيهم، ومحبة محبهم ومعاداة معاديهم، وحفظ السر لهم والأمانة فيما ائتمنوك عليه، وأن تكون في غيبتهم كما في حضورهم، وبعد مماتهم كما قبل مماتهم.

---

(١) زيادة من (ج).

ومع الخلق: كما فسروا ذلك، إمّا خواص وإما معارف وإمّا مجاهيل، وهذه الصحبة أشار إلى بعض مقاصدها الإمام الغزالي نفع الله به، وهو غناً[١] عن تفسيرها، لما قد أوضحوا من طريقها ، وحققوا بيان سبيلها ، فلا نطول به، لذلك قال الشيخ رضي الله عنه مبيناً لطريق الإرادة، وموضحاً لمنهج الاستفادة؛ لأن صحبة العموم معروفة فلا تعريج إليها ، وصحبة الحق وصحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يتحقق كمالها إلا كشفاً، وهو نتيجة هذه الصحبة التي اصطلح عليها أهل الله[٢]، فحيث ذُكرتْ الصحبة في طريقهم فالمراد بها هذه والله أعلم.

قال الشيخ رضي الله عنه:

١ـ **مَا لَذَّةُ العَيشِ إِلا صُحْبَةُ الفُقَرَا　　　هُمُ السَّلاطِيْنُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَرَا**

لذة العيش في صحبة الفقراء

أمّا المعروف من لذة العيش - **والعيشُ**: هو كل ما يقوم به القوام الحسي أو المعنوي، **واللذة**: هي كل مستلذ طبعاً أو حساً أو روحاً أو معنى- واللذة الحسية ليست مرادة لذوي العقول، وجهابذة العلماء الفحول، ولكن عندهم المراد المستلذ روحاً ومعنى، لانفرادهم به عن مشاركة البهائم في الحس، ودخولهم في وصف الروحانيين بالمعنوي، وحددها العلماء الرسميين بكل ما تحمد عاقبته وإن كان مؤلماً.

ولما علمت أن العيش هو العيش الروحاني المعنوي فأين لذّاته التي لا يعلم حد مقدارها إلا مُوجدها؟ حتى يُروى أن بعض الأولياء في الجنة يسمّون

(١) أي وفي ما ذكره الإمام الغزالي الغنى والكفاية عن تفصيل ذلك.

(٢) قال الإمام القشيري: الصحبة على ثلاثة أقسام: صحبة من فوقك: وهي في الحقيقة خدمة. وصحبة من دونك: وهي تقضي على المتبوع بالشفقة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والحرمة. وصحبة الأكفاء والنظراء: وهي مبنية على الإيثار والفتوة، فمن صحب شيخاً فوقه في الرتبة فأدَبه ترك الاعتراض، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل، ينظر: (الرسالة القشيرية) صـ٤٤٥.

الطاهية[١]، عندما يسمعون قراءة الحق عليهم سورة طه، كما كانوا يقرؤونها عليه في دار الدنيا ، إذا تلاها عليهم يخرون سكارى[٢] من لذتها على كثبان من نور خمسين عاماً، كلما أفاقوا أدار عليهم ذلك الكأس كذلك فخروا كذلك.

ومن المعلوم أن هذه اللذة ليست من المحسوسات الجسميات، وإنما هي من لذيذ كؤوس شراب[٣] الكلمات القدسيات، فقال الشيخ: ما المستلذ من العيش المعهود عند المحققين إلا صحبة الفقراء[٤]، وهم المعروفين بالعهد

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ ولعل الشيخ أورده بالمعنى والذي ورد مما يشهد لمعناه -ومن ذلك- ما رواه الدارمي ٢/ ٣٢٧ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((**إن الله تبارك وتعالى قرأ: طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليها هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تتكلم بهذا**))، وقد ذكره ابن الجوزي في (الموضوعات) ١/ ١٠٩، وتعقبه الحافظ ابن حجر كما ذكر السيوطي في (اللآلي المصنوعة) ١/ ١٠.

وأورد الحكيم الترمذي ما يقرب من هذا وهو ما رواه بريدة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((**إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين، فيقرأ عليهم القرآن، وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذي هو مجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضه: بالأعمال، فلا تقر أعينهم قط كما تقر بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى رحالهم وقرة أعينهم ناعمين إلى مثله من الغد**)).

قال الشيخ العارف عبد الله سراج الدين في كتاب (تلاوة القرآن المجيد) صـ ٥٧ : ((وهذا من أعظم النعيم وأجل أنواع التكريم، وتعتريهم لذة في سماعهم ما ذاقوا لها من قبل مثيلاً، ولا معشاراً منها ولا فتيلاً، كما روى السجزي في الإبانة: عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: ((**كأن الناس لم يسمعوا القرآن حين يتلوه الله عليهم في الجنة**)). ينظر: (الرسالة القشيرية) صـ١٥٢، و(كشاف اصطلاحات الفنون) ١/ ٩٦٠.

(٢) السكر: غيبة بوارد قوي، فإذا كوشف العبد بنعت الجمال حصل السكر؛ وطرب الروح، وهام القلب، وسميت هذه الحالة سكراً للدهش الذي يلحق سر المحب في مشاهدة جمال المحبوب ولما خامر السر من الوله والهيجان لتحير نظره في شهود جمال الحق . ينظر: (الرسالة القشيرية) صـ١٥٢، و(كشاف اصطلاحات الفنون) ١/ ٩٦٠.

(٣) يعبّرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي، ونتائج الكشوفات، وبواده الواردات، فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب، وداوم مواصلاتهم يقتضي لهم الري. ينظر: (الرسالة القشيرية) صـ١٥٤.

(٤) وقد تعددت تعاريف الفقير عند أئمة التصوف فعرّفه الشبلي: بأنه هو من لا غناء له إلا بالحق، فليس الفقر عندهم الفاقة والعدم بل الفقر المحمود الثقة بالله تعالى والرضي بما قسم، قال إبراهيم القصار: ((الفقر =

الذهني، وهم الغائبين عن شهودهم الباقين بوجود سيدهم، والفقر اسم [جامع][١] عام المراد به لغةً خلو اليد عما يحتاج إليه، ولذا تفاوتت حاجات الخلق بتفاوت فقرهم، فلذا ورد التغاير[٢] في الفقر، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الفقر فخري وبه افتخر**»[٣]، ولإطلاق لفظه وتفاوت مقاماته كان المراد بعد يفهم[٤]، أن مراده أكابر الأولياء وخواص الأصفياء؛ إذا علمت ذلك فالفقراء المشار إليهم المتلاشون بلمعان أنوار الذات، المتمكنين من حقائق الأسماء والصفات، لهم في كل موطن من مواطن الطريق، وعلم من علوم التحقيق، القَدَم الراسخ، لا يحجبهم فرق عن جمع[٥]، ولا جمع عن فرق، ولا حق عن خلق، ولا خلق عن حق، فهم أعرف الرجال بأنساب الحقائق، وأوثق الخلق بحفظ الأحوال[٦] ومعرفة الطرائق، وأقوم الرجال لمعالم الشرائع ، وأبعد الخلق

= لباس يورث الرضا إذا تحقق العبد فيه»، قال يحيى بن معاذ: «حقيقة الفقر أن لا يستغني العبد إلا بالله». ينظر (الرسالة القشيرية) صـ٤١٧، و(كشاف اصطلاحات الفنون) ٢/ ١٢٨٢.

(١) الزيادة من (ب).

(٢) كذا في النسخ الخطية.

(٣) قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٢١٨): أما ما اشتهر على الألسنة [من قولهم]: «الفقر فخري وبه أفتخر» قال الحافظ ابن حجر أنه موضوع لا أصل له. اهـ، قلت: وروى الترمذي بإسناد حسن من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين**» وأخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد بزيادة: «**وإن من أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة**»، أما الفقر الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأحاديث الأخرى فقد قال الإمام الغزالي: هو فقر الاضطرار، أما الذي سأله ففقر الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار لله تعالى. ينظر (اتحاف السادة المتقين) (٩/ ٢٧٢).

(٤) كذا في النسخ الخطية.

(٥) قال الإمام القشيري: الفرق ما نسب لك، والجمع ما سلب عنك، ومعناه أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وابتداء لطائف وإحسان فهو جمعٌ. ينظر: الرسالة القشيرية (صـ١٤٣).

(٦) الحال عند القوم: معنى يرِدُ على القلب، من غير تعمّد منهم، ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم، من: طرب أو حزن، أو بسط، أو قبض، أو شوق، أو انزعاج، أو هيبة أو احتجاج فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترقٍ عن حاله. ينظر (الرسالة القشيرية) صـ١٣٣.

عن الطامات والخوارق، وبصحبة هؤلاء لا محالة يستقيم حال المصحوب، وتهب نفحات القرب من المحبوب، الذي هو نهاية الأرب والمطلوب، فيعيش العيشة الراضية، ويتنزه في رياض النعم السامية؛ لأن من تخلّق بحالة لم يخل حاضروه منها.

وقد علمت ما هم عليه من لذيذ العيش الهني، ومقام الخلافة السني، فلا جرم أن ترشح من زواخر تلك البحور، على صفحات الوجوه وغيوب الصدور، ما هم عليه من الهناء والحبور، وذلك أثر الصحبة، إذ للصحبة تأثير في الكثيف فكيف لا يتأثر بها اللطيف، إذ النفوس ألطف من الهوى والأجسام، وقد رأينا تأثر الأجسام والهوى بمصاحبة المسك يُعَبِّقُ سائر جوانب البيت الذي هو فيه، فكذلك صحبة الفقراء الذين تبوئوا حضرة القدس، وأناخت مطايا هممهم في مواطن الأنس[1]، فبصحبتهم تُكتسَب الفضائل، وتُنال أسنى الوسائل.

كيف يكون الفقراء سلاطين وسادات وأمراء

وكونه وصفهم أي الفقراء بكونهم سلاطين وسادات وأمراء ، فأمّا كونهم سلاطين فلمّا تمكنوا من قهر الأعداء ، وتسلطوا عليهم بغاية القهر، وانقهرت لهم النفوس، واستبعدوا الأهواء، وانهزم عنهم العدو اللعين وجنوده، فثبتت لهم السلطنة القعسرية[2]، والرئاسة الشامخة والعزة السرمدية، ونفذ تصرفهم في سائر العوالم ، وذلك لفناءهم عن مشاهدهم[3]، وبقائهم بربهم[4].

وكونهم ساداتٌ لِما عليهم من وقار العلم، وسعة دائرة الفهم، والسادة هم العلماء.

---

(١) الأنس هو: أثر مشاهدة جمال الحضرة الإلهية في القلب وهو جمال الجلال، والأنس أتم من البسط، وتحدث عن هذا الحال الإمام السري السقطي فقال: ((يبلغ العبد إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر)). ينظر: ((الرسالة القشيرية)) صـ١٣٧، و((التوقيف)) صـ٩٨.

(٢) القديمة. ينظر ((القاموس)) ٥٩٧، مادة: قطبر.

(٣) الفناء يشير به القوم: إلى سقوط الأوصاف المذمومة، فمن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً، ولا رسماً ولا طللاً، يقال: إنه فني عن الخلق وبقي بالحق. ينظر ((الرسالة القشيرية)) صـ١٤٧ .

(٤) البقاء يشيرون به: إلى قيام الأوصاف المحمودة به. قال المناوي البقاء: رؤية العبد قيام الله على كل شيء. ينظر ((الرسالة القشيرية)) صـ١٤٦، و((التوقيف)) صـ١٤٠.

وكونهم أمراء[١] لما قاموا به من الخلافة، فهم الخلفاء الراشدون، والأئمة الهادون المهديون، فبهذا الاعتبار صاروا أمراء حق ونواب صدق، يمشون بين الناس بالنصيحة ، ويحببون الله إلى عباده ويحببون عباده إليه، تسلم عليهم أقطار الأرض، وتبكي لفقدهم السماء كما ورد قريبا من هذا في وصفهم[٢]، ولي في ذلك شعراً:

إِنَّ الفَقِيرَ لَـهُ عِلْـمٌ يَقُـومُ بِـهِ ... فِيْ كُلِّ فِعْلٍ وَحَالٍ مُقْتَفَي الأَثَرَا
وَفِيْ المَعَالِي كَشَمْسٍ يُسْتَضَاءُ بِـهِ ... فَانٍ عَنِ الكَوْنِ مَا يَشْهَدْ لَـهُ أَثَرَا

فإذا علمتَ ذلك، علمتَ أن الفقراء المشار إليهم سادات العارفين وأئمة المحققين، وعلمت أن لذة العيش في محبتهم، ونيل غايات السعادة في محبتهم، ولكن من أراد السلوك على منهجهم، والتعلق بطريقتهم، فليطلب الآداب ويستعمل خالص الأعمال.

---

(١) روى الإمام القشيري في رسالته ما نصه: كان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كأنهم الأمراء. وكان ابن الجلاء يقول: «لولا شرف التواضع لله لكان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر». ينظر (الرسالة القشيرية) صـ ٤٢٣.

(٢) يشير إلى ما رواه الترمذي في سننه كتاب (تفسير القرآن)، باب ومن سورة الدخان ٤/ ٢٢٣، الحديث (٣٢٥٥)، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ما من مؤمن إلا وله بابان، بابٌ يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، فذلك قوله عز وجل: فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين» يعني: فما بكت السماءُ والأرض على موت الكافر، وإنما تبكي الأرض على موت المؤمن الصالح؛ لأنه كان يعمل عليها صالحاً، وتبكي عليه السماء؛ لأنه كان يصعد له فيها عمل صالح.

٢- فَاصْحَبْهُمُ وَتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْمَا قَدَّمُوكَ وَرَا

قال الشيخ رضي الله عنه:

ضرورة اصطحاب الشيخ والتأدب معه

أُمر السالك الطالب الصادق، بصحبة هؤلاء السادة الفارغين[(١)] عن تهذيب أنفسهم، المتفرغين لإصلاح غيرهم، ولا يصل سالك[(٢)] في الغالب إلى مقصد الإرادة إلا بصحبة أهل الله، وملازمتهم واستنشاق لطيف أخلاقهم، واستنشاق عطر أنفاسهم.

والصحبة: هي الملازمة، يقال صحبه إذا لازمه، وملازمتهم لها أثر ظاهر في تهذيب أخلاق المريد كما هو مشاهد، ومن سلك الطريق بغير دليل لا يحصل منه نائل، بل إن ظهر فهو شجر بلا ثمر، قال الواسطي[(٣)] رضي الله عنه: ((من لم يأخذ الأدب من المؤدبين، بقي بطال وإن بلغ في المجاهدة كل مبلغ))[(٤)]؛ لأن من لم تجري أفعاله على يد غيره لم يجيء منه شي، وذلك لكثافة حجاب النفس؛ لأنه لا يصدر عنها إلا ما هو على شكلها، وقد علمت ما هي مجبولة عليه من محبة

(١) أي الذين انتهوا من تهذيب أنفسهم وتفرغوا لتهذيب غيرهم.

(٢) السالك: هو السائر إلى الله وهو وسط بين المريد والمنتهي، وهو من مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وتصوره، فكان العلم الحاصل له عيناً يأمن به من ورود الشُّبه المضلّة عليه. ينظر (كشاف اصطلاحات الفنون) ١/ ٩٧٠، و(التوقيف) صـ٣٩٤.

(٣) هو بنان بن محمد الحمال الواسطي ثم المصري، عابد عارف، صحب الجنيد وغيره، روي عنه أنه: ألقي بين يدي السبع بإغراء من الملك ابن طولون،فجعل السبع يشمه ولا يضره، فقيل له: ما كان في قلبك حين شمك السبع؟ قال: كنت أتفكر هل سؤر السباع طاهر أم نجس؟ توفي بمصر سنة (٣١٦هـ)، ودفن بالقرافة. ينظر (حلية الأولياء) ١٠/ ٣٢٤، (سير أعلام النبلاء) ١٤/ ٤٨٨، (الطبقات الكبرى) للمناوي ٢/ ٦٠، (الرسالة القشيرية) صـ٩٤.

(٤) قال الإمام أبو علي محمد بن عبدالوهاب الثقفي(ت ٣٢٨ هـ): ((لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصاحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، فمن لم يأخذ أدبه من أستاذ، يريه عيوب أعماله، ورُعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات)). ينظر (الرسالة القشيرية) صـ ٤٠٨.

الهوى والتبذخ بالدعوى والرعونة وسائر الأخلاق الملومة، فقد يظن دعواها وزورها حق فتغتر وتدعي ما لم تتأهل له، وإذا جرت أفعال المريد على يد شيخ مرشد أفلح إن شاء الله تعالى وأنجح، قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**استعينوا على كل حرفه بصالحي أهلها**))[1] أو كما قال، قال العلماء: ((من لم ير مُفلح لا يفلح؛ لأنه يهذب أخلاق المريد بلفظه ويلحظه بحاله ومقاله وتصرفات أفعاله)).

لكن جُلّ ما يطلب من المريد مع الأستاذ الأدب، بل هو عماد أمره ومنتهى أمله، وبه يدرك نهاية مطلوبه وغاية مرغوبه، والأدب في القول والفعل والحال، في الغيبة والحضور، وأجلها أن يكون في مجالسهم كالميت بين يدي الغاسل، لا فعل له ولا قول، ولا حال ولا علم ولا معرفة، بل يتصف بغاية الافتقار ونهاية الاضطرار، لتناله نظراتهم، وتنفذ إليه إشاراتهم، لذلك قال الشيخ رضي الله عنه: (**اصحبهم وتأدّب في مجالسهم وخلّ حظك مهما قدموك**) إلى حضرتهم وارتضوك لمنادمتهم وراء، لا التفات لك إلى حظوظك الحسية ولا المعنوية، بل تكون فانٍ عنك وعن حظوظك، ومن جملة حظوظك أن تطلب حالاً أو مقاماً أو شيئاً دون الله، مع رؤية أنك غير أهلٍ لما ينالك من الفضل، وتكون بعلمهم لا بعلمك، وبمعرفتهم لا بمعرفتك، وإذا جاءك أمرٌ منهم أو نهي فأرم بميزان قياسك واجتهادك وأصّل كيف ما كان الأمر، وأَحِل القصور على فهمك فهو أوْلى من أن تحيله عليهم، فهم المؤيدون بروح الله دونك، فمن أتاهم وعنده منه

---

(١) قال الحافظ السخاوي في (المقاصد): ((قد يستأنس له بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((**ما كان من دنياكم فإليكم**)). ينظر (المقاصد الحسنة) صـ ٧٧، الحديث (١٠٥).
قال العجلوني في (كشف الخفا) ١/ ١٢٢ وقال في (التمييز): ويشهد له ما ثبت في سنن أبي داود عن سعد، قال: مرضت مرضاً فأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعودني، فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي، وقال لي: ((**إنك رجل مفؤود، فأت الحارث بن كلده من ثقيف فإنه رجل يطبب**)). ففي الحديث ما يؤكد معنى ما تقدم من الاستعانة بأرباب الإتقان في الحرف.

بقية، يخشى عليه من الإنكار الذي يستحق به سخط الجبار والعياذ بالله من ذلك، ولي في ذلك شعراً:

يَا رَائِداً لِطَرِيقِ الحَقِّ مُجتَهِداً الْزَمْ لِصُحْبَتِهِ فَرْدَ الوَقْتِ مُنْتَخَبَا
وَرَاعِ لَهُ جُمْلَةَ الآدَابِ مُعْتَمِداً عَلَى إِشَارَاتِهِ ذَا مُنْتَهَى الطَّلَبَا
وَخَلِّ حَظَّكَ وَاتْرُكْ كُلَّ مُسْتَنَدَاً إِلَيهِ وَاجْعَلْ مُرَادَاتِ النُّفُوسِ هَبَا

فإن الشيخ طريق إلى الله، ومعراج إلى حضرة الله، كالحاجب على باب الملك، يعلم الوافدين الذين لم يعرفوا آداب المجالسة مجالسة الملك لينالوا بذلك جزيل العطا والمواهب، بل ويحظون[1] به بالقرب إلى الملك ورتبة الوزارة، كذلك الشيخ مع السالك إلى الله، يعلمهم أولاً آداب الخدمة، ثم آداب المجاورة، ثم آداب المحاورة شيئاً بعد شيء، ولا ينقل عن رتبة إلا وقد أحكمها علماً وعملاً وحالاً ومقاماً، فلا يزال به كذلك حتى ينتهي به إلى أن يزج به زجة فيقول ها أنت وربك، وها ربك ولا أنت.

المنازل التي ينزل فيها الشيخ المريد

وتعدادات المنازل الذي ينزل الشيخ المريد فيها مما لا يكاد تنحصر، على حسب استعدادات المريدين وتغاير أخلاقهم، والشيخ قد أهّلَه الله لإنزال كل مريد على ما في استعداده فينزل به عليه؛ لأن منهم المستعد لمقام القرب والعرفان والكشف، ومنهم من لا يكون استعداده إلا لإقامة الأعمال وظواهر الأفعال من جليات شرائع الإسلام دون دقائقها ورقائقها وهم أصحاب اليمين، واختلاف كل على حدته لا يكاد يضبط بالحصر، وذلك لسعة دائرة مظاهر الأسماء، والشيخ قد أعطاه الله التخلق بأسماء الله ما عدا الاسم الأعظم فله منه التعلق[2]،

(١) في (أ) ويحيطون.

(٢) قال الإمام أبن عجيبة: اعلم أن أسماء الله الحسنى كلها تصلح للتعلق والتخلق والتحقق، فالتعلق: طلب حصول معنى ذلك الاسم، والتخلق: المجاهدة في العمل الذي يُحصِّل ذلك المعنى، والتحقق: حصوله ورسوخه في القلب حتى يتمكن منه، ولا يتخلف عنه.

فهو يرقي المريد إلى محتده[١]، ويوقفه على درياق علته، حتى ينتهي به إلى ما يكِلّ دون التعبير به الأفهام، ولا يحسن التصريح به للعوام، فهذا بعض ما يحسن بنا أن نتكلم به في هذا الموطن.

ولما كان الوقت أعز ما عند الرجال، والوقت عند القوم هو ما يتحفون به من المنح الإلهية والنفحات الوقتية، وقيل الوقت: ما يقام فيه العبد من الآداب الشرعية، وقيل: ما يكشف للعبد من التجليات الحقّيّة إلى غير ذلك[٢].

قال الشيخ رضي الله عنه:

٣- وَاسْتَغْنِمِ الوَقْتَ وَاحْضُرْ دَائِماً مَعَهُمْ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرَا

استغنام الحضور مع الأشياخ وفوائده

واستغنم أيها المريد والطالب المستفيد، والاستغنام: بذْل الوسع مع الاغتباط به في طلب ما هو بصدده، و الوقت أشرفُ ما يبذله المريد في طلب المزيد من خدمتهم، والتوصل فيه إلى ما يقربه منهم، وأجل ما يعين على إدامة الحضور واجتناب التواني والفتور.

فبالحضور ترفع الستور، وإدامة الحضور إمّا بالحس وإمّا بالمعنى أو بهما جميعاً، بأن تكون معهم في مواردهم ومصادرهم، وذلك بواسطة المحبة؛ لأنه ورد ((المرء مع من أحب))[٣]، فبالمحبة تحصل المعية وبالمعية تنطوي الأينيّه،

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: كل الأسماء يصح لمعانيها التخلق إلا لفظ الجلالة (الله) فإنه للتعلق، قال ابن عجيبة: ومذهب أهل التحقيق من أهل الباطن أنه يصلح للتعلق والتخلق وأن التخلق باسم الجلالة هو: الفناء فيه، والغيبة عما سواه، أي أن يكون العبد مستغرق القلب والهمة بالله تعالى، لا يرى غيره، ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه. ينظر (شرح الفاتحة الكبير) ص١٨٢ و ٢٠٣ بتصرف.

(١) المحتد في اللغة: الأصل والطبع، ومراده يعيده الشيخ بالتزكية إلى أصل فطرته.

(٢) وقد يريدون بالوقت: ما يصادفهم من تصريف الحق لهم، دون ما يختارونه لأنفسهم، ويقولون: الصوفي ابن وقته، يريدون بذلك: أنه مشتغل بما هو أولى به من العبادات في الحال، قائم بما هو مطلوب به في الحين. ينظر: الرسالة القشيرية: (ص:١٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب علامة الحب في الله، الحديث: (٦١٦٨)، من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله غنه قال: يا رسول الله ، كيف تقول في رجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله=

فيكون بتلك المعية حاصل معهم حيث ما نزلوا في سائر المنازل، ويرد معهم في سائر المناهل[(١)].

والطبع مجبول على الاقتداء بالمحبوب حيث ما تقلبت الأحوال والأفعال والأقوال، وبالحضور المحسوس يحصل لا محالة لجليسهم من الفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، من العلم والعمل وسنيّات المواهب وغفران الذنوب، ومحو الرذائل والعيوب، بما ينال الحاضر من المنح الجارية مع أنفاسهم الوقتية، والنفحات الدهرية؛ لأنها أبداً جارية عليهم ،فينال لا محالة الحاضر المتعرض لتلك النفحات، هذا في عوالمه الغيبية ، وما يكتسبه من نفائس العلوم وسنيّات الأخلاق المرضية، والأحوال القربية، بما يستشفه من أقوالهم وأفعالهم اللفظية، فكيف لا يختص بالرضا من بين أقرانه، ممن لم يحظ بذلك ممن تخلف عنهم حسّاً ومعنى، وليس المراد والله أعلم بالحضور أن يكون بظاهرك مع مباينة الأحوال والأفعال، فما المعية إلا بما ذكرناه من المحبة والمجالسة على سبيل الاستفادة، والتلقي لما يبرز عنهم من الفوائد، واجتناب سفاسف الأخلاق[(٢)] ورذائل العوائد.

كيف يظفر المريد بالرضا والمعية؟

إذا علمت ذلك فاعلم أيها الحريص على طلب المراضي والقُرَب، أن الرضا الذي هو غاية المطلوب والأَرب، يختص من حضر، دون الغائب في غيابات البعد وظلمات الطرد عن قربهم، الذي به يحصل[(٣)] القرب من سيدهم، وبالرضا منهم يرضى عنك؛ لأن قلوبهم موضع نظره، فأحرص على ما يحصّل

= صلى الله عليه وآله وسلم: ((المرء مع من أحب))، وفي لفظ عنده من طريق أنس رضي الله عنه قال: ((أنت مع من أحببت)).

(١) المناهل: الموارد التي تورد للشرب، وهو هنا ذوق المعاني وثمرات التجلي. ينظر: (المصباح المنير) صـ٣٧٣ بتصرف.

(٢) السفاسف: الأمر الحقير والرديء من كل شيء، وهو ضد المعالي والمكارم. ينظر: (النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٧٤.

(٣) في النسخة (أ) زيادة: في.

لك الود في قلوبهم، فلعلك تكون يوماً من الدهر على قلوبهم فينظرون إليك نظرة رضا لا يعقبها سخط، وفقنا الله لذلك وأتحفنا بها هنالك.

وبإدامة الحضور تنشرح الصدور، فإذا كنت محباً لهم عاملاً بما عملوا تاركاً لما تركوا، كنت معهم في أي عالم من العوالم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما، فمن أهّله الله لذلك واختصه به، وهذه المعية نتيجة الطاعة كما ذكرنا، فأنت مع الله تعالى ومع أنبياء الله وأولياه، كنت مطيعاً، والطاعة تشمل الامتثال أمراً ونهياً؛ لأن معية الله بطاعة الله، ومعية أنبياء الله بطاعة أنبياء الله فيما بلغوا عن الله، وطاعة أولياء الله، صدِّيقاً أو شهيداً أو صالحاً، فيما ستُّوه بالأذن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**»[1] فبذلك تحصل المعية المنتجة الحضور الذي ثمرته الرضا.

ولي في ذلك شعراً:

الوَقْتُ سَوْقٌ لأَرْبَاحِ الرِّجَالِ فَمَا ... يُسْتَكْسَبُ القُرْبُ إِلّا فِيْهِ فَابْتَدِرَا
فَاحْضُرْ لَدَيْهِمْ لَعَلّكَ أَنْ تَنَالَ لَمَا ... تَرْجُو فَكَمْ مِنْ بَلِيدٍ بِالحُضُورِ دَرَا
وَاغْرِسْ أَشْجَارَ[2] تَوْحِيدِ الإِلَهِ فَمَا ... يُجْنَى سِوَى كُلِّ مَا يُغْرَسْ وَمَا بُذِرَا

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في (مسنده) وأبي داود في (سننه) وابن ماجه والدارمي والترمذي جميعهم عن العرباض بن سارية رضي الله عنه ولفظ الترمذي مختصراً: «**فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ**» قال الترمذي: في أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، الحديث ٢٨١٥ (تحفة الأحوذي) ٧/ ٣٦٧ هذا حديث حسن صحيح، ولفظ ابن ماجه مختصراً كما في مقدمة سننه، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، الحديث (٤٢): «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ**».

(٢) كذا في النسخ الخطية ولعلها: لأشجار؛ ليستقيم الوزن.

ثم لما عرفتَ شرف الحضور معهم وما ينتج من الرضى والقرب، فأعلم أن للحضور آداب[١] يحتاج إليها من أراد حضورهم واقتباس شعاع نورهم، فمن جملته الصمت عن النطق حساً ومعنى أيضاً، وإلا فقد يصمت اللسان وينطق الجنان والبنان، فلا أعون على الأدب من الصمت، فالصمت محمود في جميع أحوال الإنسان إلا من الخير المحض.

لذلك قال الشيخ رضي الله عنه:

٤ـ وَلازِمِ الصَّمْتَ إلا إنْ سُئِلْتَ فَقُلْ لا عِلْمَ عِنْدِيْ وَكُنْ بالجَهْلِ مُسْتَتِرَا

فوائد ملازمة الصمت والأدب عند مجالسة الشيوخ

ولزوم الصمت ملاك دين الشخص في سائر الأحوال، إلا في حال طلب فيه الكلام كالكلام بالواجبات والمندوبات وسائر المستحسنات، والنهي عن المحرمات بل والمكروهات، فإن النطق فيها عند اجتماع شرائط الأمر والنهي واجب في الواجب، ومستحب في المسنون والمكروه وما هو من الضرورات.

فقد نهوا عن الكلام في المحظورات والمكروهات بل والمفضولات[٢]، فذلك شأن أرباب المروءات[٣]، وأما في حضور السادات، فلا أشرف للسالك من الصمت وترك إظهار العبارات، وطوافح الإشارات؛ لأن ذلك مما يمنع المريد[٤] من فوائدهم، لظهوره بصورة الاستغناء عن نيل البركات وعميم الرحمات وسوابغ النفحات، فليحذر المريد من ذلك، ففي ذلك نوع اعتراض في

---

(١) قال ذو النون المصري: إذا خرج المريد عن استعمال الأدب، فإنه يرجع من حيث جاء. ينظر (الرسالة القشيرية) صـ ٤٣٦.

(٢) كان بشر بن الحارث يقول: ((إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم، فإن الكلام حظ النفس)). ينظر (الأنوار القدسية) صـ٥٥.

(٣) وهي أداة نفسانية تحمل الإنسان على الوقوف على محاسن الأخلاق وجميل الآداب. ينظر (التوقيف على مهمات التعاريف) ٦٥١.

(٤) في (أ) المريد عنه.

كلامهم وشريف أحوالهم، فيمقت المعترض عند ذلك، وقد قالوا بطريق الإشارة: إنما الصدقات للفقراء[١]، فمن ظهر بصورة الاستغناء يخشى أن يحرم تلك الصدقات. ((**إلا إن سئلتَ فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستترا**))، فربما يكون ذلك السؤال امتحان وابتلا، لِيُظْهِروا منك ما أنت منطو عليه من محبة الظهور بالعلم، والاشتهار بالمعرفة، وفي ذلك نهاية ما لا يخفى من ظهور صفات النفس التي بها حجب من حجب عافانا الله من ذلك، ولكن كن بالجهل مستتراً عن رؤية الأغيار، ومنحجباً بالوقت عن سائر الأوطار، لا تشهد خبراً ولا أثراً، ولا عيناً ولا أيناً[٢]، في مقعد صدق في حضرة العنديّة الملكيّة، حضرة الاقتدار، وأمَّا إن سئلت عن واجب من الواجبات الشرعية، فلا يسعك عدم الإجابة عنها، وإنما المراد إن سئلتَ عن شريف الأحوال ومقامات الرجال فقل لا علم عندي؛ لأن السائل في ذلك إما فضولي وإما ممتحن، فالاعتذار بالجهل أولى عند ذلك، وأما إن كان أيضاً على سبيل الاسترشاد، وليس في المجلس من هو أحق بالكلام في ذلك، فينبغي أن لا يسكت عنه، لكنه إن كان طريقه العبارة، وإن كان طريقه الإشارة فالتصريح به جهل، بل ينبغي أن يكتفي بأقرب الإشارات إلى الأفهام، وليتقي في مجالس المشايخ التصريح والإشارة ويكون كآحاد الجهال ولا يتسم بسمات الرجال، بل يكون يتيماً ضالاً عائلاً ليؤوونه ويهدونه ويغنونه، والصمت سلامة من الخطأ وأبعد عن الندامة، ولذا قال نبي

---

(١) ذكر الإمام الشعراني عليه رحمة الله تعالى: من شرط المريد أن يرى نفسه دائماً في مقام الطفولية، ليرضع من ثدي المربي، فإن من كبر استحق العظام، ومنعوه الرضاع، ومن لطيف ما يحكى في هذا المجال ما ذكره الشيخ العلامة عز الدين بن غانم بن عبد السلام المقدسي في كتابه (شرح حال الأولياء ومناقب الأصفياء): أن الشيخ أبا يزيد البسطامي – رضي الله عنه – رئي في المنام بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك يا أبا يزيد؟ فقال: أوقفني بين يديه وقال لي: بما جئتني يا أبا يزيد؟ فقلت: يا رب جئتك بما ليس في خزائنك منه شيء، فقال: وما هو الذي ليس في خزائني منه شيء؟ قلت: يا رب الفقر والإفلاس، فقال: يا أبا يزيد جئتني بكل شيء. ينظر (الأنوار القدسية) صـ١٦٥، و(النور السافر) صـ١٣٤

(٢) جاءت هذه المنصوبات في النسخة الخطية مرفوعة ولعلها خطأ من الناسخ.

الله عيسى صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم: ((**تسعة أعشار السلامة في الصمت وعشر في العزلة**))[١]، وقال سليمان بن داود صلى الله عليهما وعلى نبينا وسلم: ((**إن كان الكلام من فضة كان الصمت من ذهب**))[٢]، فانظر أهل كمال الأدب وهم أنبياء الله وأصفياه كيف آثروا الصمت على الكلام، لما هم عليه من القرب من الحضرة الإلهية، يقال: من صمت نجا، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**رحم الله امرأ قال خيراً أو صمت**))[٣]، قال مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ((أبردها على كبدي أن أقول إذا سئلت عما لا أعلم أن أقول الله أعلم))[٤] أو كما قال.

فهذه الأخبار والآثار دالة على الصمت على العموم، وأما بحضور المشايخ والأكابر، فلما ورد في نص الكتاب في أدب الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حين تراجع أبو بكر[٥] وعمر في شأن إمارة بعض الأعراب

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت من طريق وهيب بن الورد قال: ((**كان يقال الحكمة عشرة أجزاء فتسعة منها في الصمت والعاشر عزلة الناس**))، ورواه أبو نعيم في الحلية بسنده قال: قال وهب بن الورد: قال حكيم من الحكماء: ((العبادة أو قال الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وواحدة في العزلة فأردت من نفسي الصمت فلم أقدر عليه فصرت إلى العزلة فحصلت على التسعة)). انظر (إتحاف السادة المتقين) ٩/ ١٤١.

(٢) قال ابن المبارك رضي الله عنه: معناه لو كان الكلام بطاعة الله من فضة كان السكوت عن معصيته من ذهب. والأثر رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت عن الهيثم بن خارجة. انظر (إتحاف السادة المتقين) ٩/ ١٣٩.

(٣) أورد نحوه الإمام الغزالي في (الإحياء) عن الحسن البصري ولفظه: ((**رحم الله عبداً تكلم فغنم، أو سكت فسلم**)) وقال الحافظ العراقي في تخريجه: رواه ابن أبي الدنيا في الصمت، والبيهقي في (الشعب)، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) هكذا مرسلاً ورجاله ثقات. ينظر (إتحاف السادة المتقين) كتاب آفات اللسان ٩/ ١٣٨.

(٤) هكذا أورده السيوطي في تاريخ الخلفاء، في فصل نبذ من كلماته الوجيزة المختصرة البديعة، صـ١٤٧ وقال: أخرجه ابن عساكر.

(٥) في الأصل تراجعا أبي بكر؛ ولعله من الناسخ.

حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل الله تعالى تأديباً وتعليماً للأدب مع هذا المنصب العظيم لخواص الأصحاب وعلمائهم بقوله عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١ - ٢]، ففي ذلك نهاية التأديب والتعليم، مع نصب الأكابر لخواص مجالسهم، ففي ذلك إشارة لكل تابع أن لا يقدم بين يدي متبوعه ولا يرفع صوته فوق صوته، ولا تجهر له بالقول كجهر بعضكم لآحاد الخلق، فلذلك كان أبو بكر إذا ناجى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كأخي السرار»[١].

فانظر ما أدب الله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واعتبر ذلك مع إمام وقتك، فإنه النائب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في دعوة الخلق إلى الله تعالى، ولي في ذلك شعراً:

الصَّمْتُ شَأْنُ ذَوِيْ الأَلْبَابِ قَاطِبَةً ... عَنِ الفُضُولِ وَعَنْ مَا فِيْهِ قَوْلُ مِرَا
فَمَنْ حَفِظْ حُرْمَةَ الأَشْيَاخِ صَارَ فَتَاً ... وَصَارَ فِي النَّاسِ صَدْرَاً غَيْرَ مُحْتَقَرَا
فَكَمْ تَسَتَّرَ ذُوْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ ... بِالجَهْلِ وَهْوَ إِمَامُ السَّادَةِ الخُبَرَا

ولما كان التواضع شأن أهل الدين، وحلية المريدين وشعار أهل اليقين والأئمة الصديقين أخذ في بيان حقيقة التواضع الحقيقي.

فقال رضي الله عنه:

---

(١) كأخي السرار: أي أنه يبالغ في خفض صوته حتى يشبه الإسرار ويشير بهذا إلى ما أخرجه الحاكم في «المستدرك» في كتاب التفسير، تفسير سورة الحجرات، الحديث رقم (٣٧٢٠)، ٤/ ١٣٩٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣]، قال أبو بكر رضي الله عنه: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله: لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله عز وجل». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص على شرط مسلم.

٥- وَلا تَــرَ العَيْــبَ إِلا فِيْــكَ مُعْتَقِــداً عَيْبَــاً بَــدَا بَيِّنَــاً لَكِنَّــهُ اسْــتَتَرَا

ولا ترى العيب، وهو كل نقص وذم ولوم برؤية تحقيق غير مشكوك فيها، فالرؤية ما لا يدخلها شك ولا ريب، فلا ترى أيها المريد والطالب المستفيد العيب وكل مذموم شرعاً وحساً إلا فيك، لأنك مجموع أصول النتائج الأرضيات، بل أنت مجموع الطبائع الحيوانيات، وأشتات الشهوات فرعا من الظلمات العدميات أصلاً، فكيف لا ترى أنك معدن العيوب، ومظهر كبائر المعاصي والذنوب، إذا علمت ذلك علمت أن العيوب متأصلة فيك، وكامنة لديك، فما لك عنها مخلص ومالك محيص، إلا بتوفيق الله وسابق عنايته ولاحق هدايته، فإذا ظهرت العناية وتوالت الهداية، فما ذلك إلا ممن له الطول العظيم والفضل العميم، فلا لك ولا إليك، وأما مركزك كما علمت فإنما هو كما قد علمت به، فلا تبرح عن رؤية بعض نفسك كيف ما تقلبت لك الأحوال، فذلك أجدر بك وأزجر لك عن رؤية عيب غيرك وأبلغ لدوام شكرك، حيث أخرجك مما هو مستحق وصفك وواجب نعتك بيد عنايته وتولي هدايته، واحمل غيرك على رؤية الكمال وأنك القاصر عن شأو ما أنعم به عليه من العلم والمعرفة، وإن ظهر منه أمر يشير إلى قصور فاعذره كعذرك ففيه ما فيك من ذلك الأصل، فكيف يسوغ لك الإنكار على من أنت دونه في القرار وهو معذور، وأنت غير معذور لأنك لا ترى العيب إلا فيك لا في سواك، معتقداً والاعتقاد هو العلم الذي لا يتزلزل عن القلب ولا يمكن انفكاكه عنه، ولذا يسمى ثبات الإيمان بوجوب الحق، وجواز غيره عقيدة، فالعقيدة لا يمكن إزالتها لشدة تمكنها، فكذلك لا يمكن أن ترى لك انفكاك عن العيب؛ لأنه أصل معدن خلقتك، وذلك بينا عندك كما تراه ملازماً لك في سائر أحوالك، وإنما هو مستتر عن الخلق بما أسدل عليك من كثيف ستره وضافي عموم لطفه، فالمنة لمن سترك لا لمن شكرك، فما تواضعت عن أمر أنت مستحقه، وإنما التواضع أن تعرف ما أنت

بيان حقيقة التواضع

عليه وما هو لازم طبيعتك مما أنت عليه من قبائح الذنوب وفظيعات العيوب واتباع الشهوات ودوام الهفوات، الذي لولا لطفه بعدم مؤاخذته بها اكتسبت خليقته، ما ترك على ظهر أرضه وتحت أديم سمائه من دابة، لعظم ما يقترفون وقبح ما يجترمون، فكيف بمن يرد عليه هذا الخطاب الهائل في التوقيع الإلهي، لا يعتقد فيه جميع العيوب، ويرى فيه ما يمنعه عن أن يرى له منزلة بما يجترحه من الذنوب، فيشغله ذلك لا محالة عن الترفع والاستطالة ويحمله على شكر نعمة تأهيله؛ لأن يكون ممن ينسب إلى جناب أهل الحق وعصابة الهدى، وستره بين العوالم السفليّة والعلوية له عن أن ينكشف فتنتهك حرمته وتخرم مروءته وذلك هو الذي شغل المؤمنين عن رؤية عيب في غيرهم أو مذمة فيمن سواهم.

فمن يفرغ عن سكر تأهيله وسيره إلى رؤية عيب في غيره، وقد وصف الله النفس بأنها الأمارة بالسوء[1] إلا ما رحم! فلولا رحمته ما كنت إلا مأموراً بأمرها ومأسوراً تحت قهرها، ومَن الذي يعلم [أنه] ممن رحم؟ ومن يتحقق أنه من شرها سلم؟ فالله يسلمنا ويعافينا من شرها ويرحمنا، ولي في ذلك شعر:

العَيْبُ فِي العَبْدِ فِي مَجْبُولِ خِلْقَتِهِ ... لَكِنَّهُ عَنْ عُيُونِ الخَلْقِ قَدْ سُتِرَا
فَكَيْفَ يَزْهُوْ عَلَى الأَقْرَانِ سُخْرِيَةً ... مَنْ فِيْهِ أَصْنَافُ أَعْدَادِ العُيُوبِ تُرَا

واعلم أن للتواضع أحوال وأقوال وأعمال، فمن أحواله ما ذكره من رؤية العيب فيك، وعلمك وتحققك.

وأما أعماله وأقواله فما يذكرها في قوله رضي الله عنه حيث قال:

٦- **وَحُطَّ رَأْسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلا سَبَبٍ ... وَقُمْ عَلَى قَدَمِ الإِنْصَافِ مُعْتَذِرَا**

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣].

المريد دائم التوبة والاستغفار

وحط رأس رئاستك مع الاعتراف بإساءتك وعظيم جنايتك، واستغفر لما هو لازم جبلتك ومتأصل في أصل خلقتك، لأنك كما علمت مأمور نفسك الأمارة بالسوء، ومقهور تحت شهوتك، فكيف لا تطلب غفران هذه المعايب! والإقالة من هذه المعاطب! واستغفارك طلب العفو وهو الستر وإن لم يظهر سبب يوجب ذلك، لأنك وإن لم يظهر عليك فأنت معرض لها ومتلبس بها، فلا جرم أن تستغفر بلا سبب؛ لأن نفس وجودك ورؤيتك لشهودك ذنب، لا يقاس به ذنب والاستغفار شأن السادة الأبرار، كما ورد في فضائله عن المختار من الأخبار وواردات الآثار، ما يحمل السالك على الاستغفار آناء الليل وأطراف[1] النهار، سيما في الأسحار كما قال جل ذكره: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً**))[2] وغير ذلك.

والاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وحط الرأس هو نهاية الاعتذار، وغاية الانكسار، وظهورية الافتقار والاضطرار، فلذا شرع للتائب بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين ويدعوا بما هو اللائق، أن يضع خده على الأرض ويمرغ وجهه على التراب، وللذاكر أيضا المستنزل لنيل المواهب أن يكشف رأسه ليتحقق بذلك افتقاره وانكساره واضطراره، وسبب الاستغفار في مقارفة الأوزار وذلك لمن ليس يتحقق بالإرادة، وأما المريد أبداً يستغفر وإن لم يظهر ذلك السبب؛ لأنه لا يخلوا عن ذنب باطن أو ظاهر خفي أو جلي، أو تقصير في خدمة، أو عدم أدب، علم ذلك أو لم يعلم، ولذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو المعصوم

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) أخرجه أبي داود بهذا اللفظ في تفريع أبواب الوتر باب في الاستغفار، (عون المعبود) ٤/ ٢٦٦، الحديث (١٥١٥) من طريق أبن عباس رضي الله عنه وزاد في آخره: ((**ورزقه من حيث لا يحتسب**))، والحديث عند النسائي وابن ماجه.

من الذنوب ونقائص العيوب: ((**إني استغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة**))[١] وفي رواية: ((**مئة مرة**))[٢]، فافهم تغنم.

مع أنك حططت رأسك مستغفراً، ومرغت حر وجهك في التراب غير مستنكف ولا مستكبرٍ، أقم أيضاً على قدم الإنصاف منك غير منتصف لك، لأنك رأيت أنك أهل لكل مذمة، ومحل لكل عيب ومُلِمة، معتذر من خطاياك وشؤم خزاياك، فعند ذلك تكون حرياً بالقبول ونيل المنى والمأمول[٣]، ولي في ذلك شعر:

حَطَطْتُ رَأْسَ رَآسَاتِي وَقُلْتُ لَهُمْ   أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِمَّا جِئْتُ مُعْتَذِرَاً
وَهَذِهِ حِيْلَةُ الخَاطِينَ إِنَّ لَهُمْ   ذُلٌّ وَدَمْعٌ عَلَى الأَجْفَانِ مُنْحَدِرَا

هذا إذا كان اعتذارك عما خفي من ذنوبك، واستتر من عيوبك، فحيث ظهر منك ما يوجب العقوبة، ويستحق صاحبه العتوبة، فلا يوحشك ذلك، ولا يقنطك ما هنالك.

كما قال الشيخ رضي الله عنه:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليوم والليلة، (فتح الباري) ١١/ ١١٢، الحديث (٦٣٠٧) من طريق أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ولفظه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((**والله أني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**)). قال الإمام الغزالي في (الإحياء): كان صلى الله عليه وآله وسلم دائم الترقي، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها فاستغفر من الحالة السابقة.

(٢) إشارة إلى رواية الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، شرح صحيح مسلم صـ١٩٠٢، الحديث (٢٧٠٢)، ولفظه عن الأغر المزني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((**إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**)).

(٣) كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمة الله تعالى يقول: يا ولدي إن كنت صادقاً في إرادتك، وصفاء معاملتك، وطهارة سريرتك فإياك أن تدعي أنك شممت للطريق رائحة، ولا ترى نفسك إلا عاصياً مفلساً، فكم تلف من غرور النفس مريد؟ ينظر: (الأنوار القدسية) صـ١١١.

٧- وَإِنْ بَدَا مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَذِرْ وَأَقِمْ   وَجْهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيْكَ مِنْكَ جَرَى

الذنب كفارته التوبة والاعتذار

وإن بدا على صفحات ظواهرك، وبرز ما كان يلم بخاطرك منك؛ لأن نسبة ذلك إليك، وشؤم عقوبته عليك، عدل من الله في خليقته، وحكم في أعيان بريته، وذلك مظهره ومحل جريانه، ومظهر لإتيانه، فلذا نسب أنه منك إضافة وإسناداً، وهو اللائق بتنزيه الحضرة عنه[1]؛ لأن نسبته إليك، ونسبة الخلق والإيجاد إليه، فعند ذلك فاعترف بكون ذلك منك، وأنها عينك التي أعطت ذلك، وأقم وجه اعتذارك بأن تطلب الإقالة، وتصحح التوبة بشرائطها وبتحريك ذلك، وتندم على فعالك بلسان مقالك ولسان حالك، عما فيك من الصفات، وما ظهر منك من الهفوات، وارتكاب المنهيات، وتوالي الخطيئات، وتتابع الزلات، وما جرى منك من الجرائم وكبائر المآثم، «فإن أنين المذنبين يفضل تسبيح المسبحين»[2].

كما ورد بمعناه ولي في ذلك شعر:

---

(١) ومثله قول نبي الله إبراهيم عليه السلام: «وإذا مرضت فهو يشفين» فإنه أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً. فيقرأ (مختصر تفسير ابن كثير) ٢/ ١٣٤٠.

(٢) رأيته في ثلاثين كتاباً من كتب العلماء إلا أن من اشتهر منهم بعلم الحديث يرويه بصيغة التمريض كما في (مجموع فتاوى ابن تيمية) ٤/ ٣٧٩، فصل: في التفضيل بين الملائكة، فنجده يقول وقد روي أن: «أنين المذنبين أحب إلي من زجل المسبحين» وهكذا فعل المناوي في (فيض القدير) ٥/ ٤٢٢، الحديث رقم ٧٤٨٨، فأورده بصيغة ولهذا قيل، ويقرب منه ما أورده ابن رجب الحنبلي في لطائف المعارف، وابن القيم في مدارج السالكين.

أما علماء التفسير كالرازي والألوسي وإسماعيل حقي فقد أوردوه على أنه حديثاً قدسياً.

وأورد البيهقي في (الشعب) ٦/ ٤٥٢، الحديث رقم (٧٢٥١) نحوه باب في معالجة كل ذنب بالتوبة، فصل في الطبع على القلب ولفظه: أنه أوحي إلى داود عليه السلام: «**أنين المذنبين أحب إلي من صراخ الصديقين**». وجزم الحافظ أحمد بن الصديق الغماري بوضعه وجمعَ جزءاً سمّاه (الحنين بوضع حديث الأنين) ومال إلى كونه من كلام الإمام جعفر الصادق.

وَإِنْ بَدَا مِنْكَ مَا يُوْجِبْ عَلَيْكَ بِهِ لَـوْمٌ فَبَادِرْ بِعُذْرٍ مِنْكَ مُبْتَدِرَا
فَالاعْتِرَافُ حَقِيْقٌ أَنْ تَكُوْنَ بِهِ مِمَّنْ لَهُ مِنْ عَظِيْمِ الذَّنْبِ قَدْ غُفِرَا

أحسن ما يتلطف به المعتذر

ومن أحسن ما يتلطف به المعتذر أن يكون بالتصغير في الاسم والرسم والوسم[(١)]، وأن يطرح نفسه منزلة الخديم، ويتلطف تلطف العديم، ويتطلب لدواء جرح اجتراحه تطلب الكليم[(٢)].

خطاب الاعتذار كيف يكون؟

لذلك قال الشيخ رضي الله عنه مرشدا لمن لمَّ به ألم البعد، وأحاطت به ندامة الذنب بقوله:

٨- وَقُلْ عُبَيْدُكُمُ أَوْلَى بِصَفْحِكُمُ فَسَامِحُوا وَخُذُوا بِالرِّفْقِ يَا فُقَرَا

وقل أيها المعتذر والمتعطش المستدر، عبيدكم الحقير، ونزيلكم الأسير، ومسكينكم الفقير، وتراب نعالكم الأثير أولى بصفحكم، وقد عُرِفتم بالصفح الجميل، والطول الأثيل[(٣)] على من يتعرض لمعروفكم، ولم يتأهل لمألوفكم، من عظيم الإفضال وجزيل النوال، والاغضاء عن الخاطئ والزال، والعفو عن الجرائم العضال، فكيف لا ينال وسيع عفوكم، وجميل صفحكم، من انتهج نحوكم، وتوجهت آمال همته حذو وجهكم، فذلك أولى بعفوكم، ومواهب بذلكم، وعميم جودكم .

فهذا وما شاكل ذلك مما يخاطب [به][(٤)] السادات، ويحاور به أولي المعارف وأهل التصرف في خزائن الأسرار والأعطيات الخفيات، فمن أتاهم على مثل

---

(١) وذلك كأن يقول: عبيدك الجاني كثير الذنوب المعترف بالزلات، فقد صغر الاسم والرسم في قوله: عبيدك، ووسم نفسه بالتقصير والجناية رجاء عفو الله وتوبته وقبوله.

(٢) وهو الجريح. ينظر: «النهاية في غريب الحديث» ٤/ ١٩٩.

(٣) أي الأصيل العظيم. ينظر «القاموس» مادة أثل (١٢٤٠).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

هذا الحال، بما يليق من لطيف المقال، وسديد الفعال، فقد تعرض لعطاياهم وفيض وفائهم، فعسى أن تناله نظرة من لوائح تلك النظرات، وتهب عليه نسيم تلك النسمات.

والفقراء هم المشار إليهم في أول الخطاب ، الذين هم أبواب عطايا الحق، وبهم تنزل الأقوات على سائر البريات، وبدعائهم تنزل البركات، ولي في ذلك شعر:

عُبَيْدُكُمْ ضَلَّ يَسْتَهْدِي بِكُمْ فَعَسَى ... تَهْدُوْنَهُ مِنْ ظَلامِ الجَهْلِ قَدْ عَثِرَا

فَالصَّفْحُ شِيْمَتُكُمْ وَالحِلْمُ قَدْ غُرِسَا ... فَشَأْنُكُمْ كُلُّ مَأمُوْلِ الضُّيُوفِ قِرَا

والرفق أولى ما يعامل به الأكابر الضعفاء، وهو زينة الأمور، لذلك يقال «**ما صحب الرفق شيء إلا زانه**»[١]، وكان صلى الله عليه وآله وسلم أرفق الناس بالجهال وأغمار الخلق، كما يرى ذلك من تتبع سيره وشرائف أحواله في جميع أفعاله وأقواله، لذا قال خذوا بالرفق يا فقراء؛ لأن القائم بمقام الدعوة لعباد الله وهداية خلق الله، نيابة عن الأنبياء في دعوة الخلق إلى الله، ولذا ورد: «**الولي في قومه كالنبي في أمته**»[٢]، وهم أحق الخلق باستعمال هذه الأخلاق، والتحلي بهذه الأحوال ممن دونهم، فلا تخف منهم إذا حصل ما يوجب اللائمة، فإنهم للذنوب عندهم معاذير.

لذا قال رضي الله عنه:

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه كتاب: البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، الحديث رقم: ٢٥٩٤، ولفظه عن زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه. ولا ينزع من شيء إلا شانه**».

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث (الإحياء) عند حديث «**الشيخ في قومه كالنبي في أمته**» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف اهـ. وقال الزركشي في (اللآلئ المنثورة): هذا ليس من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ وإنما يقوله بعض أهل العلم. وعزاه الهندي في (الكنز) للخليلي في مشيخته وابن النجار عن أبي رافع وجزم ابن حجر والسخاوي وآخرون بوضعه. ينظر (المقاصد الحسنة) الحديث رقم (٦٠٩).

٩- هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَى وَهْوَ شِيمَتُهُمْ فَلا تَخَفْ دَرَكاً مِنْهُمْ وَلا ضَرَرَا

من شيم الشيوخ قبول المعاذير

هم السادة الفقراء الأئمة الكبراء، بالتفضل بالعفو والصفح والوفاء، بل وجزيل النيل والعطاء أولى؛ لأنهم مأخوذ بهم في حال الكشف والعيان، والتحقق بكل من عليها فان، فأنى يغيرهم عما هم عليه تغيرات الزمان، واختلاف الأعيان، ومتعددات مظاهر الأكوان، فلا يرون الخلق إلا آلات مستعملة بيد الله، فانية في حال وجودها، ومتلاشية في حال شهودها، فكيف بمن هذا مشهده، يعيب الخلق أو يتأثر بما يصدر عنهم، فمعذرتهم ظاهرة عندهم؛ لأنهم يرونهم لا لهم ولا منهم وقد انطفت من الحظوظ ما اشتعل في غيرهم، كيف وقد سيّرت النعوت[1] الخلقية بتجلي الصفات الحقية، لا تكونون بالتفضل أولى ممن لم يحظ بذلك من غيرهم، وهذه الأخلاق شعارهم في ظواهرهم، وهي شيمتهم الدالة على اختصاصهم وقربهم من جناب سيدهم، حتى غطّا نعوتهم الخلقية، وصفاتهم العدمية، بنور وجوده، وسر شهوده، فصاروا له وبه لا لأنفسهم ولا بها، فحيث علمت ذلك لا تخف إذا دنوت منهم أيها التائب والنادم الآيب، دركا عليك مما تخشاه، ولا ضررا تحذر عقباه، فإن عندهم دواء كلمك، وعاقبة ألمك، وستر ثلبك[2]، فعليك بالدُنوِّ منهم، والانطراح على عتباتهم، تنال سَنيِّ هباتهم ودرياق نظراتهم، ولي في ذلك شعر:

إِذَا دَنَوْتَ فَلَا تَخْشَى غَوَائِلَهُمْ بَلْ عِنْدَهُمْ كُلَّ مَأمُوْلٍ مِنَ الظَّفَرَا
قَوْمٌ كِرَامٌ سَجَايَاهُمْ فَسَائِلُهُمْ بِنَيْلِ حَاجَاتِهِ يُقْضَى لَهُ الوَطَرَا

ثم اعلم: أنه لابد لكل سالك طريق من رفيق، فرفقاء طريق السلوك إلى الله مع الشيخ هم الإخوان الصادقين، فإن بهم تشد عزيمة المريد، وبأحوالهم

---

(١) في (أ) البعوث.

(٢) أي عيبك، يقال رَجُلٌ ثِلْبٌ بالكسر وثَلِبٌ كَكَتِفٍ: مَعِيْبٌ. ينظر (القاموس): مادة ثوب ٨١.

يحصل له المزيد، ولكن لهم آداب أيضا يحتاج لها المريد لا محالة، غير آدابه مع الشيخ، وهي أيضاً[١] مما يعامل بها الشيوخ المريدين.

وهي قول الشيخ رضي الله عنه:

١٠- وَبِالتَّفَتِّي[٢] عَلَى الإِخْوَانِ جُدْ أَبَدَاً حِسَّاً وَمَعْنًى وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا

الفتوّة أشرف أحوال المعاملات مع الخلق

لما كانت الفُتُوَّة أشرف أحوال المعاملات مع الخلق أخذ في بيانها، وأحق من يتصف بها الأشياخ ومن يلحق بهم ويداني من السالكين مقامهم، فإن أول من أقام رتبتها، وأظهر شهرتها، أبو الإسلام وحجة الله على الأنام نبي الله ورسوله إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة والسلام، حيث كسَّر الأصنام[٣] وتجنب الأزلام، وكان أمة ووفَّى بمعنى حسبي الله، وكان هذا من بعض جملة الفُتُوَّة في المعاني والسلوك في معارج القرب، وأما فتُوَّته في الحس، فلِما روي أنه كان يسمى أبو الضيفان، وقيل ما أكل طعاماً وحده.

فتوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وأما فتُوَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا أحد محيط بها[٤]، ولا تفي العبارات بجزئياتها، فمنها تحليه بالفتُوَّة لأعيان ذرات الأرواح، حين أبان لها طريق نجاتها وأوضح لها سبيل منهاجها، حيث خاطبها إلهها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] فهنا أرشدها، وفي ذلك الموطن هداها من بهيم ظلالها، من نبي وولي وسائر من أحاطت عليه دائرة الوجود، فأنى تقابل هذه الفتُوَّة، أو

---

(١) زاد في (أ) تلك الآداب.

(٢) وفي بعض النسخ: وبالتغنّي من الإغناء.

(٣) ومن هنا قيل الفتى: من كسر الصنم، وصنم كل إنسان نفسه، فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة. ينظر: (الرسالة القشيرية) صـ٣٦٤.

(٤) قال الإمام القشيري سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول عن خلق الفتوة: هذا الخلق، لا يكون كماله إلا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن كل أحد في القيامة يقول «نفسي... نفسي»، ورسول الله يقول: أنا لها». أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: حدث الشفاعة، الحديث: (٤٧٩). ينظر: (الرسالة القشيرية) صـ٣٦٣ بتصرف.

الفتُوَّة، أو تماثل منصب هذه النبوة، وما عمت رسالته في الأشباح بنورها الساطع الوضاح إلا أنقذ الله بها سائر الخلق، وأظهر بها مشرق الحق، هذا في المعنى، وأما في الحس ما نقل عنه صلى الله عليه وآله وسلم في سيره مما يكاد يخرج عن الحصر، حتى قيل أنه يأتيه العطاء الكثير فيفرقه فلا يبقي منه شيء، حتى ليأتي أهله فيقول: ((**هل عندكم شيء؟ فيقولون لا، فيقول: لو ذكرتموني لأعطيتكم**))[١] أو ما هذا معناه.

فانظر عظيم فتّوته كيف نسي حظ نفسه ووفّى بحظوظ سائر الخلق، حتى يقال: ((أن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر))[٢]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم حين ألجأه الأعراب إلى شجرة يسألونه: ((**أنكم لم تجدوني بخيلاً ولا جباناً**))[٣].

---

(١) بحثت عنه بهذا اللفظ فلم أجده والذي وقفت عليه مما يشبه ذلك ما رواه الحاكم في (المستدرك) في كتاب معرفة الصحابة برقم (٦٧٤٥) من فعل السيدة عائشة رضي الله عنها: أن معاوية بن أبي سفيان بعث إليها بمائة ألف فقسمتها حتى لم تترك منها شيئاً، فقالت بريرة: أنت صائمة فهلا ابتعت لنا بدرهم لحماً، فقالت عائشة: ((لو أني ذكرت لفعلت))، والحديث صححه الحاكم ووفقه الذهبي. ولا شك أن أمثال هذا الخلق قد اكتسبته السيدة عائشة رضي الله عنها من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً قط فقال لا. وكثرة عطائه شرح النووي لصحيح مسلم (صـ ١٧٠٦) الحديث رقم (٢٣١٢) ولفظه عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم غنماً بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال ((يا قوم! أسلموا، فوالله! إن محمداً يعطي عطاءً ما يخاف فقراً)) وفي لفظ: ((يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة)).

(٣) إشارة إلى حديث البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد، باب الشجاعة في الحرب والجبن، فتح الباري (٦/ ٣٩) الحديث (٢٨٢١) ولفظه عن جبير بن مطعم أنه بينما هو يسير مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه الناس مقفله من حنين، الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ((**أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً**)) والحديث في البخاري أيضاً في كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، فتح الباري (٦/ ٢٧٠) الحديث (٣١٤٨).

فتوة المشايخ

إذا علمت تخلّق أكابر الرسل بالفتوة المعنوية والحسية، فالشيخ يكون بهذه الطريقة واثقاً، وبهذا الخُلُقِ متحققاً، وكذا يترقى[١] المريد الصادق حتى يكون له الفتوة سجيه؛ لأن التفتي من التفعل، وهو: تكلف التفتي وتعمله[٢]، حتى تتمرن النفس عليه، ويستديم سيرها فيه على الإخوان، ومن جملة ذلك إيثارهم في المعنى بالتقدم والتصدر والثناء عليهم بالحال والمقال في الغيبة والحضور، وإظهار امتنانهم بما وصل منهم من الإشارات، وقبول صرائح العبارات، وإيصالهم ما هم محتاجون له من الأعراض مع إظهار امتنانهم أيضاً بقبولهم، كما يروى عن الجنيد رضي الله عنه: أنه أتاه فتى خراساني فوهب له أربعة آلاف، فقال له الجنيد مظهراً لفتوته ومبيناً لكريم سجيته: ((كم عمري حتى آتي على هذه)) أو كما قال، فقال له الشاب: ((ما أريدك أنت وأصحابك أن تأكلوا الخل وردي الطعام، ولكن كلوا بها ألوان الطعام، والبسوا بها أحسن الثياب)) أو كما قال، فقال له الشيخ: ((ناشدتك الله ما مقداري عندك قبل أخذها وبعد أخذها))، فقال له الفتى: ((والله إنك بعد أخذها ما أحد من أهل العراق أعظم منة علي منك إذ أخذتها))، فقال له الشيخ: ((وأنت والله ما أحد يقبل منه العطاء إلا أنت))، أو كما قال[٣]، وهذا من التفتي على الإخوان بالمال.

---

(١) في (ب) وكذا يتفتا.

(٢) قال في (القاموس) مادة عمل (صـ ١٣٣٩): اعتمل: عمل بنفسه، وأعمّل رأيه وآلته، وتعمّل من أجله: تعنّى.

(٣) حكى كلٌ من الحافظ أبي نعيم والخطيب البغدادي والشيخ القشيري والتاج السبكي وغيرهم أن الشيخ الجنيد وهو تلميذ الحارث المحاسبي قال: ((كان الحارث كثير الضُّر – شديد الفقر – واجتاز بي يوماً وأنا جالس على بابنا، فرأيت على وجهه زيادة الضر من الجوع! فقلت له: يا عم لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا؟ قال: أو تفعل؟ قلت: نعم وتسرني بذلك وتبرني. فدخلت بين يديه ودخل معي، وعمدت إلى بيت عمي سريعا – وكان أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة، لا يكون مثلها في بيتنا – فجئت بأنواع كثيرة من الطعام، فوضعته بين يديه، فمد يده وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فرأيته يلوكها ولا يزدروها – أي لا يستطيع بلعها فوثب وخرج وما كلمني!)).

وأما ما يتفتون عليهم في المعنى، فما يحملونهم عليه في الأعمال الموصلة إلى ما وصلوا إليه من صريح الكشف، وما يعرفون من المعاني التي لا يسمحون بها لأحد، حتى يغارون عليها من أنفسهم، ومع ذلك يحبون لأتباعهم أن يكونوا بها متحلين، وفي مواقف معارفها واصلين.

قال: ومن الفتوة غض الطرف حساً ومعنى من عثرات الإخوان وهفواتهم، بل وعن عثرة كل من صحبهم ومن لم يصحبهم، فإنهم يصفحون عنها كراماً، فكأنهم لا يسمعون القبيح، ولا يرون العيب، حتى روى أن ابن مسعود رضي الله عنه، مر بقوم يلعبون، فقيل: ماذا يقولون، قال: ما سمعتهم، فقيل: طوبى لابن مسعود أصبح كريماً[١]، فذلك من الفتوة.

كليات أخلاق الفتوة

وأما كليات أخلاق الفتوة على التفصيل؛ فكل محمود شرعاً واجتناب كل مذموم شرعاً، فذلك فتُوَّة، بل[٢] سائر النبوات فتوة، فقد وصفوا بها حيث قالوا فيما قالوا: ((سمعنا فتى يذكرهم))، وقال صلى الله عليه وآله وسلم في شأنه ووصفه: ((**إنه أشبه الخلق بنبيكم**[٣]))، فالفتوّة أحسن ما تخلق بها الأشياخ وخواص أتباعهم ، فالمشايخ فتوتهم على قدر منزلتهم مع أتباعهم، والإخوان مع إخوانهم، فالمريد متفتي، والشيخ فتى، ولي في ذلك شعر:

كُـنْ بِـالفُتُوَّةِ مَعْرُوْفَـاً وَمُتَّـصِفَاً ... حِسَّاً وَمَعْنَاً وَكُنْ بِـالعِلْمِ مُـذَّكِرا
وَكُنْ حَرِيْصَاً عَلَى الإِغْضَاءِ مُعْتَرِفَاً ... لِكُلِّ ذِيْ مَنْصِبٍ مِنْهُمْ بِـمَا ذُكِـرَا

---

(١) وذكر في (الإحياء) مايقرب من هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أُنذركم فضول كلامكم، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته. ينظر (الإحياء) كتاب آفات اللسان، الآفة الثانية: فضول الكلام، صـ ٩٩٥.

(٢) زيادة من (ب).

(٣) لم أجده بهذا اللفظ إلا أن معناه مندرج فيما رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [طه: ٩]، (فتح الباري) ٦/ ٤٦٦، الحديث (٣٣٩٤) ولفظه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: ((... **وأنا أشبه ولد إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم به**)).

وحقيقة الفتوه ومجموعها هي مكارم الأخلاق والتخلي [عن مذمومها، ومن كملت فيه مكارم الأخلاق][1] فقد قام بالفتوة؛ التي هي من أخلاق النبوة، وهي تشتمل على الحس والمعنى، ومن جملتها الإغضاء والتغافل عن عثرات الإخوان الذي أشار إليها الشيخ رضي الله عنه، والشيخ عماد أمره وأدبه مع المريد الفتوة التي ذكرها، فهي تجمع جميع ما ينبغي للشيخ مع المريد من التخلق بالحلم، والصفح، والإغضاء، والتغافل عن معايبه، والإرشاد إلى ما فيه صلاحه، وغاية نجاحه وفلاحه، وغير ذلك مما ينبغي للشيخ أن يعامل به المريد، فقد جمعته الفتوه.

حال المريد مع الشيخ

وأما المريد مع الشيخ فشأنه مراقبة أحوال الشيخ وأفعاله وأقواله كما قال رضي الله عنه:

١١- وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَى ... يَرَى عَلَيْكَ مِنِ اسْتِحْسَانِهِ أَثَرَا

وراقب أيها المريد الطالب لمنتهى المطالب، والسالك إلى أقصى المآرب والرغائب، فطريق مقصدك، ووسيلة محتدك، أن تكون لأحوال الشيخ مراقب، فتنهضك أحواله لا محالة، وتهديك أخلاقه وسديد مقاله، والمراقبة لأحوال الشيخ ترقى بها إلى المراقبة مع الله في جميع الأحوال، فإن الشيخ طريقه إلى الله، فبالمراقبة لأحواله تصلح أحوالك، وتثبت على المحبة أفعالك، وتتأيد بالصواب أقوالك، وهذا لا يختص بحال دون حال، بل سائر أحواله موصلة، وأفعاله مؤيدة بالروح التأييدي، كيف لا يظهر أثر ذلك على مراقبه، وتشمل بركاته على مجالسه، فيستشفُّ من صفا زجاجته صفا صفاته، ويستنشق أنفاس القرب ونفحات الوقت من عبير أنفاسه، ومن ظفر به فقد عثَر على إكسير النجاة ونال غاية مناه، ولكن بهذا الحال ينال أنفس مقامات الرجال، ويحظى بسني أحوال

---

(١) سقط من (أ).

الوصال، ويتحلى لا محالة بأحوال أهل الكمال؛ لأنها تسري إليه صفات الشيخ[(١)]، ويكسى برد الوصل عندما يخلع عليه من مثمرات[(٢)] المواهب، فيكسى مَنْ تأهّل لتلك الأحوال، وصلح لمقامات الوصال، وذلك هو المشار إليه في (فعسى يرى عليك من استحسانه)، إذا رآك أهلاً؛ لأن تكون ممن يصلح لهذا الحال، فيعقد لك عقد الولاية في مجمع الحضرة وموضع النظرة، بين أهل هذا الشأن وفرسان هذا الميدان، فيظهر الأثر، ويتحقق بتوقيع ولايتك الخبر، وينجح لك غاية الظفر بنهاية الوطر، جعلنا الله ممن حظي بذلك، وتأهل لما هنالك، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ثمرة حسن المراقبة لأحوال الشيخ

وإذا حسُنت مراقبة المريد للشيخ، ظهرت بواسطته ما تكل عنه العبارات، وتقصر دونه الإشارات، فإن الشيخ روح طريق السالكين، وبرضاه يَنال رضا ربِّ العالمين، [ومن طريقه تظهر][(٣)] مواهب الله على عبده، ويعذب مشرب قربه، ويستمر على أصلاده[(٤)] هواطل وبله، والمراقبة هي الملاحظة لتلك الأحوال السنية، والشيم الرضية، والأفعال المرضية، والملاحظة لها برؤية الكمال في سائر الأحوال لا محال يكسب المريد نهاية المراد، لذلك يقال إذا أراد الله أن يوصل إليه المريد بواسطة الشيخ طوى عن المريد سر البشر وأبطنه منه، ونشر له سر[(٥)]

---

(١) وكان من حرص السلف على مجالسة من هذا وصفه أن قال الإمام ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر): قد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح، للنظر إلى سمته وهديه، لا لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته. وفي هذا المعنى يقول أبو طالب المكي في (قوت القلوب): وقد كانوا يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين، للنظر إليهم، وللتأدب بهم. ينظر (تعليقات الشيخ عبد الفتاح أبوغدة على رسالة المسترشدين) صـ ١٠٤.

(٢) وفي نسخة (ب) مستمرات.

(٣) في (أ): ويؤيده نذر، وما بين المعقوفتين زيادة اقتضاها السياق.

(٤) الصّلد: الصُّلب الأملس فيقال: صلدت الأرض أي تصلبت. والأرض الصلداء الغليظة الصلبة. ينظر القاموس مادة: (صفد) صـ (٣٧٥).

(٥) سقط من(أ).

الاختصاص وأظهره له، وإذا لم يكن له منه نصيب، بل أريد به طريق أهل العناد، وأهل الشقاء من العباد، يطوى عنه سر الاختصاص، ويظهر له سر البشر والانتقاص، كما وقع ذلك مع من سلف من الأنبياء وسادات الأصفياء، فإن الخلق فيهم منقسمين على حسب انقسام القبضتين، فإن من لاحظ أحوالهم وراقب أفعالهم بملاحظة الكمال، وحمل كل ما يرى منهم حيث لم يسعه علمه ولم يبلغه فهمه أحسن المحامل وأشرف الفضائل، فكل رآءٍ لهم يكون تأثيره على قدر رؤيته من خير أو غيره، فإياك أن تقيسهم على نفسك، وقصور فهمك وعقلك، فتخسر وتحسر، بل يكون لهم منازل عندك منزهة عن غيرهم من الجنس، [فإن][1] من الحق له سمعاً وبصراً أو يداً ومؤيداً؟ فأنى يداني من هو متصف بجميع النقائص! ومتلبس بكثائف الشهوات! ومنهمر في ظلمات الجهالات والغفلات! ومتلطخ بقاذورات الذنوب والهفوات! وكيف يتطرق خلل إلى السادات، بعد أن طهَّر جبلاتهم إله البريات؟ هيهات هيهات! لا تقاس الحقائق بالمحالات! ولا تعادل شموس اليقين بالخيالات! فلتعلم ذلك ترشد وتسعد، وتحظى منهم بنفائس الإفادات، وكيمياء السعادات، فإذا صلحت السريرة والطوية، وطويت عنك أغطية البشرية، فعند ذلك تظهر عليك هباتهم، وتلحظك خوارق شوارق نظراتهم، وتنظر بنور الحق ما غاب عن غيرك من الآيات، وتنظر في ملكوت الأرض والسموات، وترى سر قيوميّة سائر البريات، فتخاطبك الحقائق، وتناطقك الصوامت بلسان فصيح، من وراء أسجاف المكونات بتوحيد موجدها، وبحكمة مبدعها، فتكون كلك عين تنظر، وكلك سمع، وكل ذرة منك قائمة بخالص عبوديتها، وكل لطيفة منك شاهدة بتوحيد مبدعها، وكل طور منك له ظهور، وكل ظلمة فيها نور، ولو أخذنا فيما يفتح به على السالك من الحقائق والآيات، لاستغرق منا جملة الأوقات، ولكن البعض يدل على الكل، وذلك

---

(١) في (أ) و(ب) فأين والصواب ما أثبتناه.

ببركات مراقبات أحوال السادات، فتبلغ بنظرة منهم ما لا تبلغه باجتهادك دهور وأوقات، ولي في ذلك شعر:-

لِلشَّيْخِ وَقْتٌ إِذَا رَاقَبْتَهُ حِسَّاً يَغْمُرْ وُجُوْدَ مُرِيْدِ الحَقِّ فَانْتَظِرَا
عَسَى تَنَالُ لِذَاكَ الوَقْتِ إِنَّ سَنَا أَنْوَارِ غُرَّتِهِ سِرٌّ لَهُ أثَرَا
قُمْ وَاغْتَنِمْ زَمَنَ الإِمْكَانِ إِنَّ جَنَا أَنْوَارِ أَشْجَارِ سِرِّ الغَيْبِ قَدْ ظَهَرَا
اللهُ أَكْبَرُ ذَا فَتْحٌ بِغَيْرِ عَنَى فَبَدْرُ إِشْرَاقِ نُوْرِ الفَتْحِ فِيْكَ سَرَا

أول مبدأ المريد الجد والتشمير

ثم اعلم أن أول مبدأ المريد والأخذ في طريق الإرادة الجد والتشمير، والأخذ بالعزيمة والسير في عماد الأخدام، والقيام بالخدمة على الأقدام.

قال الشيخ رضي الله عنه:

١٢- وَقَدِّمِ الجِدَّ وَانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ عَسَاهُ يَرْضَى وَحَاذِرْ أَنْ تُرى ضَجِرَا[(١)]

ومن آداب السالك والطالب لأرفع المسالك، ارتكاب الملمات والمهالك[(٢)]، والذبول والخمول، وطلب ما فيه الرضا والقبول، وكل سالك لا يركب متون العزائم، ويرمي بنفسه في يم مهمات الأمور العظائم، ويطلب الخدمة تحت كل عالم، فقلَّ أن يصل إلى نائل ويتحقق بطائل.

والجد هو: أن لا يخالط أعماله وأقواله، ما يكون فيه تردد بين الإحجام والإقدام والوهم، وفي القول ما يكون هزلاً، والمريد يكون في ابتداء أمره كله جد قولاً وفعلاً، لا يتردد في المضي إلى أمره، ولا يقف دون مقصوده، وقال الحسين

---

(١) سقط البيت رقم (١٣) من نسخ الشارح وقد ضمن شرحه البيت رقم (١٢) والبيت الذي سقط هو قوله:
١٣- فَفِيْ رِضَاهُ رِضَا البَارِيْ وَطَاعَتِهِ يَرْضَى عَلَيْكَ فَكُنْ مِنْ تَرْكِهِ حَذِرَا
(٢) في سبيل الثبات على الطاعة وأعمال الخير والبر.

ابن منصور الحلاج[1]: ((المريد كالسهم من القوس لا يقف دون الهدف، وكل مريد يمزج إرادته بهزل، أو يشوب عزيمته بفتور، أو يكون له مراد غير الله، فلا بد أن يرجع إلى ما منه خرج)).

وخدمة المشايخ من أجلِّ ما يتقرب المريد بها إلى رضا الله تعالى؛ لأن قلوبهم كما علمت مواضع نظره، فحيث أدخلت السرور عليهم كنت في قلوبهم لا محالة، وإذا كنت في قلوبهم غمرتك تلك النظرات ونالتك تلك اللحظات، فأي قربة أنفع وأنجح للمريد من ذلك، لذا قال وأنهض، والنهوض هو: القيام بسرعة، وعدم تأني وفتور، إشارة إلى اغتنام خدمتهم، والمبادرة إلى ما فيه مراضيهم، وفي أخبار داود: ((**إذا رأيتَ لي طالباً فكن له خادماً**))[2]، فعسى بذلك يتحقق المأمول، وتبلغ نهاية الأرب والسول، وهو الرضا؛ لأن الشيخ إذا رضي عنك، رضي الله عنك فإن رضاه سبب متعلق برضا الله تعالى ولابد، ولكن عساه يرضى بما فعلت، ويقبل منك ما وهبت، فبذلك تحصل على أشرف خصال الإرادة، وتتحقق بأكمل أفعال السعادة.

إذا علمت ذلك وتحققت بها هنالك، حاذر أيها السالك، أن تكن ضجرا، مما تتوارد عليك من مشاق الأمور، ومعضلات النوائب الشاقة على الطباع،

---

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله تعالى: وهو من أهل بيضاء فارس، ونشأ بواسطة العراق صحب الجنيد والنوري، وعمرو بن عثمان المكي، والفوطي، وغيرهم رحمهم الله أجمعين قتل رحمه الله تعالى ببغداد بباب الطاق يوم الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة سنة ٣٠٩هـ قال الشعراني في طبقاته: ورأيت في تاريخ ابن خلكان ما نصه: قتل الحسين الحلاج ولم يثبت عليه ما يوجب القتل رضي الله عنه. وقد بث الإمام القشيري أقواله في كتابه (الرسالة القشيرية) بأكثر من ستة عشر موضعاً، قال الشعراني: وقد أشار إلى تزكيته حيث ذكر عقيدته مع عقائد أهل السنة أول الكتاب فتحاً لباب حسن الظن به، ثم ذكره في أواخر الرجال لأجل ما قيل فيه. من أقواله: ((إذا انحل القفل عن القلب صار ربانياً)). ينظر (الطبقات الكبرى) للشعراني ٢/ ١٠٧ – ١٠٨، و(الطبقات الكبرى) للمناوي ٢/ ٦٨-٧٦.

(٢) ذكره الإمام الغزالي في (الإحياء) وعزاه الزبيدي في (الإتحاف) إلى (قوت القلوب). ينظر (الإتحاف) ١/ ٣٥٧.

فالتضجر هو: التبرم، ومن ألف التبرم بأوامر الأشياخ، كان بأوامر الله كذلك، وحال التبرم كما علمت مباين أحوال الرضا، فالرضا فرع عن الرضا، والرضا لأهل الرضا، والثواب لأهل الصبر، والسخط لأهل السخط، وهو التبرم نفسه الذي يعبر عنه بالتضجر من خدمة الأشياخ، فخدمتهم وأمرهم هو أمر الله نفسه، كما أن الرضا يحصل على رضا الله، وقد علمت ما حال المتبرم بأمر الله وخدمته، فلذلك حاذر أن تكون متضجراً، وعن السعي في أوامرهم متحيرا، فذلك صفة الأوغاد، ودليل على الإبعاد من حضرات الوداد، ولي في ذلك شعر:

الجِدُّ حِلْيَةُ مَنْ لَهُ فِي السُّلُوكِ يَدَاً ... وَخِدْمَةُ القَوْمِ شَأْنُ السَّادَةِ الكُبَرَا

فَقُمْ وَبَادِرْ إِلَى مَا ثَمَّ مُعْتَمِدَاً ... عَلَى الوَفَاءِ بِعِقْدِ الصِّدْقِ وَاعْتَذِرَا

وَحَاذِرَنْ أَنَّ مَنْ اسْتَطْوَلَ الأَمَدَا ... قَسَا وَصَارَ حَلِيْفَ البُعْدِ كَيْفَ تَرَا

والتضجر والملل دأب[١] أهل البطالة والعلل، و الدأب[٢] على الاجتهاد صفة أهل الوداد والجهابذة الأمجاد، إذا علمت هذا، ورأيت ما عليه غالب أبناء الزمان من الميل إلى الدعة، وطلب ما فيه راحة النفوس، والمواثبة على المألوف والمحسوس، واتباع الهوى وكثرة الخوض في الفضول، بل ما فيه عظيم الوزر ووبيل الإثم، والإعراض عن مسالك الهداية، وترك التحقق في علوم الدراية، واستصعاب مراتب النهاية، علمت أن طريقة القوم دارسة.

كما قال الشيخ رضي الله عنه:

١٤- وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ ... وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَرَى

صفات طريق القوم

مما أكثر الخلق مكبون عليه، ومقبلون بكليات هممهم إليه، واعلم أيها الطالب لطريق القوم، وطريق القوم هو: الطريق القويم ونهج الصراط المستقيم،

(١) أي عادة وشأن. ينظر (القاموس) مادة دبب، صـ١٠٥.

(٢) أي والاستمرار على الاجتهاد.

والقوم المذكورون هم: العارفون والأئمة المحققون، فهم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم[1]، كما ورد تسميتهم بذلك في الأثر المأثور، والخبر المذكور، وهذا والله أعلم الأصل في تسميتهم بهذا الاسم من بين طوائف الخلق، وطريقهم أعدل الطرق، وأقوم المناهج والسبل، وهم مشايخ الصوفية الذين انتشرت عنهم الأخبار، وظهرت من أنوار طرائقهم الآثار، وأشرقت بشموس حقائقهم الأنوار في سائر الأقطار، وإذا رأيت ما أكثر الناس عليه من مباينة أحوالهم، وعدم الفهم لصريح أقوالهم، وترك ما هم عليه من العزائم والأحوال الشريفة، والمقامات المنيفة، من القناعة والورع، والزهد والصبر، والرضا والخوف، والرجاء والقبض، والبسط والأنس، والهيبة والمعرفة، والمحبة والعشق، والمحو والصحو، والفناء والبقاء، والمراقبة والحضور، والكشف والمشاهدة، والاستغراق والشوق، والاشتياق[2]، إلى غير ذلك مما تعجز عنه العبارة، ولا تفي به الإشارة، فأين هذه المقامات والأحوال من أحوال من ترى ممن يدعي أنه من أهلها؟ ومتبذخ بأنه ممن أُهِّل لها فأين حاله من هذه الأحوال؟ وأين مقامه من مقام الأبدال[3]؟ وهو بعد

---

(١) إشارة إلى حديث الترمذي أبواب الدعوات، باب: أي الكلام أحب إلى الله، (تحفة الأحوذي) ١٠/ ٤٣، الحديث (٣٨٤٣)، ولفظه عن أبي هريرة وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما والحديث طويل جاء في آخره: «.. **هم القوم لا يشقى لهم جليس**». قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح والحديث في (صحيح البخاري) كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وج، (فتح الباري) ١١/ ٢٣٣، الحديث (٦٤٠٨) بلفظ: «**وهم الجلساء لا يشقى جليسهم**».

(٢) وقد أوضح معاني هذه المقامات والأحوال الإمام القشيري في رسالته بما فيه الإفهام للمتفهم فطالعه تقف على أنواع من الآداب ومكارم الأخلاق التي تعينك في السلوك إلى الله.

(٣) البدلية رُتبة عالية من مراتب الصلاح يعرفها أهلها، وقد كان الإمام الشافعي رحمه الله يقول في بعضهم: كنا نعده من الأبدال، وقال البخاري في غيره: كانوا لا يشكون أنه من الأبدال فهذا يدل على أن الأئمة يعرفون صفاتهم، وفي حديث مرفوع أورد السخاوي: «**ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال: الرضا بالقضاء، والصبر عن المحارم، والغضب لله**»، في (الحلية) عن معروف الكرخي رحمه الله: «من قال في كل يوم عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، كتب من الأبدال» ويروى: «**علامة أبدال أمتي أنهم لا يلعنون شيئاً أبداً**» وعلى العموم فحديث الأبدال حديث صحيح جزماً كما حقق ذلك جماعة من المحدثين منهم الحافظ السخاوي في جزء سماه (نظم اللآل في=

لم يخرج عن حبائل العادات! ومصائد الشهوات! وكبائر المعاصي والهفوات! إلى صرف صفو العبادات، فضلاً عن التحلي بأخلاق الإرادات، والترقي إلى خالص المقامات، ولا انتقل إلى الأحوال، ولا شاهد حقائق القربات، ورفيع الدرجات، فأين ما يدعيه؟ فلو طلب من يخرجه عن مضيق حسه، إلى فسيح قدسه، لكان أولى به وأحرى، ونهج السبيل واضح لمن أراد الهدى، والدليل لائح لمن صدق في الاقتداء، ولكن الهوى عم فأعمى، ووفّره الشقاء فأصم و أصمى، فلذا ورد عن سيد البشر صلى الله عليه وآله وسلم: ((**إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك**))[١]، فلما رأوا أصحاب التحقيق ما استحكم على الطباع من هذه الصفات، وما جبلت عليه النفوس من الشهوات، والله اعلم أن ذلك سبب عذرهم عن الاشتهار، وإعلان الدعوة وصريح الإنذار، والدارس هو: الذي عُفي عن السير عليه لفقد من يسير عليه[٢]، والنفس مسافة هذه الطريق، وهي منازل النفس في الحس، ومناهل القلب في المعنى، فكلما نزلت منزلاً ورد القلب منهلاً، كما ذكر ذلك الشيخ العارف بالله عمر بن محمد السهروردي[٣] في كتابه المعروف بـ(الرحيق)،

=الكلام على الأبدال)، والحافظ السيوطي في كتاب (الخبر الدال على وجود النجباء والأوتاد والأبدال)، ومن أصح ما ورد في أخبارهم ما رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط الصحيحين، رواه في باب المهدي من كتاب الملاحم. وللتوسع ينظر (المقاصد الحسنة) للسخاوي حديث رقم (٨)، و(كشف الخفاء ومزيل الإلباس) حديث رقم (٣٣).

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك)، كتاب الرقاق ٤/ ٣٢٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة ٤/ ١٠٩، الحديث رقم (٣٠٥٨) ولفظه مختصراً عن أبي ثعلبة الخشني: قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام**)). قال الترمذي هذا حديث حسن غريب.

(٢) قال في (القاموس)، مادة درس، صـ ٧٠١، درس الرسمُ دروساً: عفا، والدروس الطريق الخفي.

(٣) هو الشيخ العارف شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي صاحب عوارف المعارف ولد سنة ٥٣٩هـ بسهرورد ونشأ بها ثم قدم بغداد وأخذ عن الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيره وسمع الحديث من جماعة، وكان فقيهاً شافعياً، عالماً، صوفياً، إماماً، ورعاً، زاهداً، عارفاً، شيخ وقته في علم الحقيقة، أثنى عليه=

وهذا السفر قل من يتحقق به من المريدين، فإن له سيرين سير إلى العالم، وسير إلى الحق، وكلما نزل من الحق تجلٍّ، زاد في العالم تجلٍّ، وكلما تجلى من العالم تجلٍ تلقى من الحق تجلٍّ، وهكذا أبداً بلا نهاية، فسيره إلى العالم في التخلص والفناء، وسيره إلى الحق في تحقيق البقاء.

طريق السالكين وأحوالهم وأذواقهم

وطريق السالكين إما مجذوبون، وإما سالكون، وبين هاتين الطريقين طريق ثالثة وهي هذه التي ذكرناها قريباً، التي تسري إلى عالم الحقيقة، وإلى عالم الخليقة، وطريق السالكين طريقة التكليف، وطريقة المجذوبين طريقة التعريف، وكلا الفريقين على الحقيقة سالكين ومجذوبين، هذا ما يقال في طرائقهم ومقاماتهم، وأما في أحوالهم فيقال: محبوبين ومحبين، وهذه كثير ما يتداولون ألفاظها في كتب المحققين، وأما ذوقها فلا يتحقق به إلا من أقيم فيها، فليس الخبر كالمعاينة، ولي في ذلك شعر:

طَرِيْقَةُ القَوْمِ بَيْنَ الخَلْقِ عَافِيَةٌ ... لِقِلِّ سُلَّاكِهَا مِنْ كُمَّلِ البَشَرِ
وَحَالُ غَالِبِ أَبْنَا الوَقْتِ بَائِنَةٌ ... عَنْهَا فَكُنْ بِهَا مِنْ عِلْمِهَا خَبَرِ
دُرْ بَيْنَ عُشَّاقِ ذَاكَ الحَيِّ قَاطِبَةً ... مُسْتَخْبِراً عَنْهُ فِي بَدْوٍ وَفِي حَضَرِ

والدعوى سبب البلوى، وفيما كتب بعض الفقراء إلى الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي[1] رضي الله عنه: أني قد بلغت منزلة القطبية، فكتب له الشيخ رضي الله عنه: اعلم أن من ادعى رتبة أقيم فيها منع من الترقي عنها، ومن ادعاها قبل بلوغها حجب عنها، أو كلام هذا معناه.

=الحافظ ابن حجر فقال: كان رأس الصوفية في زمانه، توفي ببغداد سنة ٦٣٢هـ. ينظر ترجمته في (الكواكب الدرية) ٢/ ٤٩٢، و(معجم المؤلفين) ٧/ ٣١٣.

(١) هو الإمام العارف أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي نسبة لعقيل بن أبي طالب، من كبار العباد الزهاد، له تصانيف في غاية السداد منها: (ثمرة الحقيقة ومرشد السالك إلى أوضح طريقة)، سئل عليه رحمه الله تعالى مرة عن الاسم الأعظم فقال: هو أن تدعو الله وليس في قلبك إلا هو. توفي عليه رحمة الله تعالى سنة ٧٠٤هـ. ينظر (طبقات الخواص)، صـ٢٢، و(طبقات المناوي الكبرى) ١/ ١٠، و(معجم المؤلفين) ٢/ ٣١.

وطريق القوم مقامات شريفة، وأحوال كسبية ووهبية، فالدعوى [تمنع][(١)] الترقي فيها، [وتوقف][(٢)] عن المريد [التحقق بمقاماتها] فيفتر المريد؛ لأنه ما ادعى إلا وهو يظن انه قد بلغ نهاية الوصول، ووقع على المحصول، وهيهات؛ أنى له بالوصول! فأولى ما يطلب من المريد الخمول والذبول، وكل مدع اليوم وغداً يؤول إلى الردى، ويطالب بحقيقة ما ادعى، عافانا الله منها ومن كل بلية في الدين، كيف ترى أحوال المدعين مباينة لأحوال أهل الدين، وطرائق المتقين، وحقائق أهل اليقين، ثم أخذ في بيان المحققين، وناشراً لمقام المقربين، ومعترفاً لهم بما هو له أهل.

فقال رضي الله عنه:

١٥- مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِمْ أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّيْ عَنْهُمُ خَبَرَا

التعلق بالأولياء والأدب معهم

متى أراهم؛ لأن برؤيتهم يحصل غاية المنى ونهاية المآرب، ونجح المطالب ومحو المعايب؛ لأن من رآهم أنجح، ومن لحظهم أفلح، فرؤيتهم درياق لكل عاهة، وموصل لكل كرامة دنيا وأخرى، كما أن من رآهم بعين التعظيم، رقى بهم الدرجات، ونال في العقبى دخول الجنات، فمتى أرى من توصلني رؤيته إلى ما هو المقصود من رضوان المعبود، وفائض الكرم العميم ودخول جنات النعيم، وهم أهل عين اليقين وحقه وحقيقة حقه، أهل دائرة الخلافة ومقعد الصدق في حضرة العندية ومقام الولاية،[متى لي بهم وأنى أي كيف لي بذلك أي كيف لي برؤيتهم ورؤيتهم][(٣)] ما ينالها إلا من ثبتت له الولاية، وسبقت له من الله العناية، وأنا بعد لم أتحقق ذلك لي، أو تسمع الأذن الواعية مني وهي أذن

---

(١) في الأصل يمنع .
(٢) في الأصل ويوقف.
(٣) سقط من (أ).

القلب السامعة عنهم خبراً؛ لأن أخبارهم تنبي بعلي أسرارهم، وهي أخبار الأسرار ومشرقات الحقائق، ولطائف الرقائق ومظنونات الدقائق، فمتى سمعت الأذن عنهم ذلك، واستمعت[١] ما وصل منهم لحقت بهم، ووردت مناهل شربهم، وتطلعت إلى اللحوق بهم في أعمالهم وأقوالهم، فتشتاق إلى العناق، وترتاح إلى التلاق، وتبادر إلى الوفاق، فالسماع له أثر ظاهر عند السامع، فإذا سمعت الآذان عنهم فقد نالت حقيقة السماع[٢]، وجالت في ميدان الاتساع، فالسماع مأثور غير منكور[٣]، عند من له فيه مشرب من عارف ومقرب، وذلك من الشيخ رضي الله عنه غاية الإنصاف، ونهاية الاعتراف بالقصور عن شأوهم ورفيع مقامهم، تاركاً للدعوى مجانباً لرعونة الأهواء، إعلاماً لمن قام في ذلك المقام، وأعطي رصانة العبارة وفصاحة الكلام، أن لا يدعي طريقة الكرام، والأهلية لكمال الحال والمقام، مع ما الشيخ رضي الله عنه فيه من التحقيق بكمال

---

(١) في (ب) واستملت.

(٢) قال الإمام الحداد عليه رحمة الله تعالى: القوم رضي الله عنهم يسمون هذا الفن من السماع بالسماع المطلق، وهو أن يلوح له من كل ما يسمعه أي شيء كان، معنى يفهمه، فيما هو بصدده من سلوك الطريق وموافقة الرفيق الأعلى، كل حسب حاله ومقامه، ولكن شرط ذلك عندهم وقوع ذلك فجأة وبديهة، من غير تفكر ولا تعمل، ولهم في ذلك حكايات مشهورة.
منها: ما يحكى أن ثلاثة منهم سمعوا منادياً ينادي: يا سعتر بري، فتواجدوا وربما غابوا فلما سُئلوا عن الموجب لذلك، قال أحدهم سمعت مخاطبة من الحق: اسعَ تر برِّي، وقال الآخر سمعت: ما أوسع بري، وقال الثالث سمعت: الساعة تري بري. ينظر (النفائس العلوية) صـ٢٨

(٣) ونقل الإمام الغزالي في (الإحياء) في كتاب آداب السماع ١/ ٧١٨ و ٧٥٨ عن الإمام الجنيد قوله: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع، عند الأكل؛ لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة؛ لأنهم لا يتحاورون إلا مقامات الصديقين، وعند السماع؛ لأنهم بوجد ويشهدون حقاً.
ثم قال: ولا يكون السماع مستصحباً إلا لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلى الصفات المحمودة، وأما الحرام: فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم الدنيا فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة. وأما المباح: فهو لمن لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسين. وأما المكروه: فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكنه يتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو.

المعرفة، وعوالي المقامات وشوامخ الحالات، حتى فاض عنه ما ملأ نواحي الأرض من الكرامات، وخوارق الإشارات، وواضح العبارات، علمت ما عنده من المقت لنفسه عن أن يتأهل لرؤيتهم، أو يصلح لمنادمتهم، أو يكون من أهل حضرتهم وسماع شريف مقالهم، فما أنصفهم من أنفسهم، وما أعرفهم بحق غيرهم، جزاهم الله منه خيراً، فأين من يدعي أنه من أهل هذه الطريق، وصحبة ذلك الفريق، من هذا الشيخ العارف، المتحلي بكمال المعارف، وقد سمعت اعترافه بقصوره أنى يرى أهل الطريق، أو يسمع بأخبار أهل التحقيق، إذا علمت ذلك علمت ما المدعين عليه من الغرور، وما هم متلبسين به من الزور، وأين أحوالهم من حاله، وأباطيل دعاويهم من صائبات مقاله، فرضي الله عن أهل الإنصاف والصدق، ولكن لا ينبغي الإياس المؤدي إلى الإفلاس، فالمحبة رابطة قوية، ورتبة أولوية، فالمحبة لهم مع الاعتراف بالقصور موصل إلى كمال الحبور، ومبشر بنيل القرب، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**المرء مع من أحب**»[1]، حيث قيل له يا رسول الله: «**المرء يحب القوم ولما يلحق بهم**» فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**المرء مع من أحب**»، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أحب قوماً كان منهم**»[2]، فبالمحبة لهم، والتعلق بأذيال طرائقهم، والتمسك بحقائقهم، يلحق بهم، فلهم موارد من واردات الحقائق الذي لا

---

(١) هذا الحديث وما بعده أخرجه البخاري في (صحيحه) كتاب الأدب باب علامة الحب في الله الحديث رقم (٦١٦٨-٦١٧١) من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولما يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: «المرء مع من أحب» وفي لفظ عنده من طريق أنس رضي الله عنه قال: «أنت مع من أحببت».

(٢) فيه إشارة إلى حديث أبي قرصافة رضي الله عنه ولفظه: «**من أحب قوماً حشره الله في زمرتهم**» والحديث عند الطبراني في (الكبير) ١٢٠/ ٧٤ برقم (١٣٨)، والحاكم في (المستدرك) ٣/ ١٨، والضياء المقدسي في المختارة كما في (كنز العمال) ٩/ ١٠، والهيثمي في (مجمع الزوائد) ١٠/ ٣٦٢ برقم (١٨٣) وقال فيه من لم أعرفه.

يشوبها كدر، ولا يعتري واردها [خطر][1] ولا ضرر، لذلك قال الشيخ رضي الله عنه معترفاً أيضاً بعدم الأهلية لما أهلوا له من العطايا، وسنيات المواهب والمزايا:

١٦- مَنْ لي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ   عَلَى مَوَارِدَ لَمْ آلف بِهَا كَدَرَا

اعتراف الشيخ وأدبه مع القوم

من لي بذلك، وكيف لي بها هنالك، أنّى أزاحمهم وأنادمهم و أساهمهم على موارد واردات الأحوال، وسنيات المواهب العوال، وأمثالي أيضاً ممن حاله كحالي، من أين له أن يتأهل لذلك أو ينال ما هنالك؟ فاعرف ما أنت عليه أيها الناصح لنفسه، واجعل أنك من أمثال الشيخ أبي مدين، واعترف بقصورك كاعترافه، وما أدري من أي حالة أنت عليها؟ أحال المقربين؟ أم حال المغرورين؟ وزخارف المدعين؟ فأعجب لذلك من إمام عارف متحلي بكمالات المعارف، وهو الذي يقول: من لي وأنى لمثلي أن يزاحمهم على موارد لم تألف بها كدرا؛ لأنه قد ألفها وعرفها، ومع ذلك لم يدَّعِها، ولكن ترجم عن لسان حاله بمقاله حيث قال الشيخ رضي الله عنه :

١٧- أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيهِمْ وُأُوْثِرُهُمْ   بِمُهْجَتِي وَخُصُوْصاً مِنْهُمُ نَفَرَا

المحبة أعظم رابطة بين المحب والمحبوب

ولطيف العبارة أن يفهم المراد من غير تصريح، بل بالتعريض ولطيف القريض، إذا علمت ما أومأنا إليه آنفاً من صريحات الأحاديث النبوية، علمت أن الشيخ رضي الله عنه وأمثاله ممن حذا حذوه نالوا كمالات الأحوال، ونهايات غايات الوصال، حيث قال: أحبهم، والمحبة أعلا مقام يوصف به العارف؛ لأنها سارية في كل مقام، وهي الحلة التي حلي بها الحبيب، ومن فروعها المداراة والتودد إلى المحبوب، ومن فروعها الإيثار بنفائس المهج، وطرائف الأعمار ووصائف الغرائب والبهج، وكل محبة لا تنتج المداراة والإيثار فهي صورة بلا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق هي بياض في الأصل.

معنى، وشجر بلا ثمر، ودعوى بلا بينة، فالمحبة تقتضي ما ذكره من المداراة في الابتداء، والإيثار في الانتهاء، والمحبة: صفة في الغريزة أصلها من تعشق الفرع بالأصل، وكل ما جمع متفرق سمي حباً، أو من الحبب الذي يطلع من الماء عند نزول المطر(١)، فالمحبة في الأصل غير مكتسبة، وأما ظهورها وإنتاج ثمرتها، فتكتسب بالتعمل والتحبب بما يقرب من المحبوب أولاً بالمداراة بالأقوال والأفعال، وبالإعراض حتى يثبت الاتصال، و يتعاشق الأحوال(٢)، وتجتمع الأقوال والأفعال، فلا يتعدى محب محبوبه في فعل ولا قول ولا حال، وعند ذلك يكون الإيثار وهو التقرب إلى المحبوب بما هو مضطر إليه بالاختيار، وما هو المحبوب لديه وما يكثر حرصه عليه، فيبذله غير ملتفت إليه، بل جل مطلوبه رضا محبوبه، فيذهل عن نفسه وحظوظها، بل عن أصل حيويتها في إيثاره لحبيبه بنصيبه من محبوب سواه، هذا في محبوبه من الجنس الخلقي، وأما محبة الحق فلا سبيل إلى اكتسابها إلا بالإتيان من بابها، فالأصل فيها حبه لعبده، ونتيجتها حب العبد لربه، وأعظم طرق الوصل لهذه المحبة اتّباع الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم، فكل من كمل في الإتباع كان له من المحبة النصيب الأوفر، والحظ الأكبر، ومحبة السادات المقربين كذلك موصلة لا محالة إلى هذه الحالة، إذ المحب بالطبع يتبع المحبوب، وباتباعهم واجتماعهم يحصل على اتباع الحبيب، فينال بذلك ما نالوا من محبة الله، ومن جملة الإتباع في هذه المحبة، ما ذكره الشيخ رضي

---

(١) قال أبو بكر الكتاني رحمه الله تعالى: جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي! فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبدٌ ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفاء شربه من كأس ودِّه، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد جزاك الله خيراً يا تاج العارفين. ينظر (حقائق عن التصوف) صـ٣٢٢.

(٢) في (ب) ويبقى شق الأحوال.

الله عنه من المحبة أولاً، ثم المداراة ثانياً، ثم الإيثار ثالثاً، وفي هذه الثلاث المراتب يدخل جميع التقربات ونوافل الخيرات حساً ومعناً، فالمداراة من جملة أخلاق المؤمنين، وضدها المداهنة، وهي من أخلاق المنافقين، وقد تلتبس المداراة بالمداهنة[١] على من لا علم عنده، فليعلم ذلك لئلا يقع في المداهنة وهو يريد المداراة المطلوبة[٢]. والمداراة: مجاهدة الأخلاق على تحمل المشاق لتربية الدين والصبر على أمر المجاهدة، حتى تتمرن النفس على استعمال مكارم الأخلاق والإيثار، بعد ما ينكشف للسالك ثمرات المجاهدة ويحظى بالمشاهدة، فيؤثر مختارا بالمال والحال، كما قال :(**بمهجتي**) وهي: محل الحياة من الإنسان التي هي أعز الأشياء عنده[٣]، كما يروى عن بعض المحبين أنه خلا بمحبوبه، فقال له: يا سيدي أحبك بقلبي كله، وتعرض عني بوجهك كله، فقال إن كنت تحبني ماذا تنفق عليّ، قال له: أنفق عليك مالي حتى يفنى، ثم روحي حتى أهلك، فهكذا، فكيف بحب السادات الذين حبهم حب سيدهم، ومقرب إلى رضاه وموصل إلى محبته، وخصوصاً منهم من أُهلّ لهذه الطريقة وعصابة دائرة الحقيقة (**نفرا**)، وهم السادات الأفراد والعصابة الأمجاد؛ لأنهم النفر المذكورين، إذ من جملتهم

---

(١) قال الإمام ابن عجيبة: والمداهنة: هي بيع الدين بالدنيا، ومثاله: أن يرى المنكر ويسكت عنه؛ لئلا يكسر خاطر الفاعل، وربما يحسنه له خوفاً منه، أو طمعاً فيما عنده.

والفرق بين المداهنة والمداراة: أن المداهنة أن يبيع دينه بدنياه، أي دفع دينه ليأخذ عرضاً من الدنيا، وأما المداراة: فهي بيع الدنيا بالدين، أي: دفع الدنيا ليصون بها دينه وعرضه، وهي جائزة .

وفي الحديث: ((**المداراة صدقة**)) أخرجه أبن حبان وصححه.

(٢) وقد روى الطبراني وأبو نعيم وابن السني وابن حبّان عن جابر وصححه ابن حبان أن ((مداراة الناس صدقة))، وروى الخطابي عن الحسن البصري أنهم يقولون: ((المداراة نصف العقل، وأنا أقول العقل كله))، وقد أفرد ابن أبي الدنيا المداراة بالتأليف. ينظر (كشف الخفاء) ١/ ٥٠٧، الحديث (١٣٥٢) و٢/ ٢٦٢، الحديث (٢٦٢)، و(المقاصد الحسنة) صـ ٢٣٢، الحديث (٥٠٧).

(٣) قال في القاموس مادة مهج، صـ ٢٦٣، المهجة: الدم، أو دم القلب، والروح، وامتهج فلان: انتزعت مهجته.

القطب والإمامين، والنفر من الثلاثة فما فوق، والأفراد لا ينقص عددهم عن ثلاثة وقد يزيدون، وهم الركبان ((الثلاثة ركب...)) الحديث والقطب أحدهم، فهم الخاصة من الخاصة، رزقنا الله حبهم، وجعلنا ممن انتظم من حزبهم، وانغمر في غمار سربهم، وارتوى من رحيق شربهم، ولي في ذلك شعر:

مَنْ لِيْ بِأَنِّي أُنَادِمْ سَادَةً شَرِبُوْا ... مِنْ خَالِصِ الوِدِّ كَأْسَاً فِي الوُجُودِ سَرَا
ومَنْ لِيْ وَأَنَّى لأَمْثَالِي إِذَا قَرُبُوا ... مِنْهُمْ بِنَيْلِ المُنَا وَالعِزِّ وَالظَّفَرَا
أُحِبُّهُمْ حُبَّ مُرْتَاحٍ فَمَا نَسَبُوا ... لِجَانِبٍ كُنْتُ مِنْهُمْ فِيْهِ مُؤْتَمَرَا
قَوْمٌ يُدَارُوْنَ بِالإِحْسَانِ كَمْ جَلَبُوْا ... بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرَا
لايثَارِ[1] شِيْمَةِ أَهْلِ الحُبِّ مَا ... عَنْهُمْ وَعَنْ مَالَهُمْ طُرّاً وَإِنْ كَثُرَا

صفات الشيخ الكامل

ولأهل هذا الشأن بين الخلق أخلاق يعرفون بها لكل مريد صادق ومحب موافق، فللشيخ خمس خصال إذا كملت فيه الخمس فاعرفه بها، وألق نفسك إليه، واستخرج سيف حقيقتك من قراب بشريتك، وسجن طبيعتك، فمن ذلك: أن يكون [له][2]:

١- علم صحيح على قواعد الكتاب والسنة، ٢- وذوق فيما علمه صريح من غير أن تخالطه شبهة ولا شك، ٣- وهمة عالية عن ما سوى الله، ٤- وبصيرة نافذة تخترق العوالم، وتخرق العوائد، وتخترق غيب الملكوت، وتشاهد مظاهر الجبروت، ٥- وشيم مرضية يقرب بها من يدعي الحق من الخلق.

فإذا كملت هذه الخصال [وظهرت فيه أثار هذه الخلال][3] فهو إمام الوقت، وواسطة عقد الوجود، وموضع نظر المعبود.

(١) كذا في النسخ الخطية ولعلها إيثار.
(٢) زيادة اقتضاها السياق.
(٣) زيادة من (ب).

ثم أخذ رضي الله عنه في وصفهم، وإظهار نعتهم، فقال رضي الله عنه:

١٨- قَوْمٌ كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا ... يَبْقَى الزَّمَانُ عَلَى آثَارِهِمْ عَطِرَا

صفات القوم وأحوالهم

قوم اجتمعوا على الله، واتفقوا على محبة الله في سابق فطرهم، وظهور ذرات وجودهم، من قبائل شتّى جمعهم حب الله، واتفقت كلمتهم على إحياء وإعلاء كلمة الله، وإشادة مباني طريق الله، فهم العصابة المرضية، والأئمة الصوفية، والخلاصة الأقدسية، فسجاياهم مرضية، فالسجية هي الغريزة والفطرة أو العريكة(١)، وهم المتخلقون والمتحلون بمكارم الأخلاق، ومداومة الوفاق على الوفاء بالميثاق، ومجانبة المخاصمة والشقاق، وغير ذلك مما لا تفي به الأعداد، وتحتوي على كلية جميعه الأوراق.

ومن جملة الدلائل على علي مقامهم، أنهم حيث ما جلسوا وحلّوا حلت البركات، ونارت الظلمات، وتوالت المسرات، وحفت بهم وبمن حضرهم التجليات، واستبشرت بهم أقطار الأرض والسموات، وتبقى مآثر آثارهم على ممر الأوقات، فيبقى عطر شميم المواهب من آثارهم فائح، وأنوار القرب من ألفاظهم لائح، تستغاث بهم الأمطار، وتحيا بحياتهم الأقطار، ويرفع بهم عن أهل الأرض البلاء، ويرخى بهم الغلاء، ويقرب بهم كل بعيد، ويحظى منهم بالمزيد كل ملازم عتيد.

وهذه الآثار التي إليها أشار، ما أطيب من تلك الأنفاس، وأي عنبر أطيب من معنبر عبير أسرارهم يقاس، ولي في ذلك شعر:

سَامَرْتُ لَيْلَى مَعَ لَيْلَى بِذِيْ سَلَمٍ ... وَبِتُّ أَشْكُو وَهِيْجَ البَيْنِ مُنْتَظِرَا
نَاشَدْتُكَ اللهَ هَلْ نَاشَدْتَهَا قَسَمَاً ... أَوْ لَاحَ لَكَ فِي ظَلَامِ حَالِكٍ قَمَرَا

---

(١) قال في (المعجم الوسيط) صـ ٤١٨، السجية: الطبيعة والخلق جمعها سجايا.

فلما علمت أن آثارهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، يهتدي بها سالكي طريقة الحق، ويستضاء بها من ظلمة الجهل، قال رضي الله عنه مشيراً لذلك ومبينا عنه بقوله:

صفات أهل التصوف

١٩- **يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاقِهِمْ طَرَفاً حُسْنُ التَّآلُفُ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا**

يهدي التصوف، أي يُكسِبُ التصوف وهو كما علمت كل خلق عظيم، وفعل كريم من أخلاقهم وتصرفات أفعالهم، طَرَفاً جمع طرفة وهي كل لطيف حسن يسمى طرفاً[1]، والتصوف كما علمت أنه أشرف أخلاق القوم، واصطلحوا فيما بينهم من بين طوائف الإسلام على تسمية من كملت فيه مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وشرائف الأحوال، وثبت على الوفاء وكمال الصفاء، وهم الذين أحيوا سنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بالعمل بمقتضى العلم، إذا أهمل غيرهم ذلك، فصار اسم التصوف على مجموع الآداب الشرعية والأخلاق النبوية دليل.

إذا علمت ذلك فأخلاق مشايخ الطريق وعلماء التحقيق تهدي نديمهم إلى كمال هذه الآداب، وشريف هذه الأحوال، التي هي أحسن نتائج هذا النوع، وألطف معادن هذا البشر، فلذا سميت طرفه.

(**حُسن التآلف**)[2] بالحال والمقال والفعال، يتألفون خلق الله ليقتنصوهم من أيدي البعد إلى مواطن القرب، قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((خيركم

---

(١) يقال امرأة طِرْفُ الحديث: أي حسنته بحيث يستطرفه من سمعه، ينظر (القاموس) مادة طرف صـ١٠٧٤، وقال الفيومي في (المصباح المنير): والطُرفة ما يستطرف أي يستملح والجمع طُرَف وغرفة وغُرَف ينظر صـ٢٢٢. وفي نسخة (طرقاً).

(٢) أي فطرائف أحوال وأخلاق هؤلاء الأقوام قادة جميع من تبعهم وأهدت إليه حسن التآلف، فهم رضوان الله عنهم دعاة التآلف، يقربون الخلق إلى الخالق حتى يألفوا محبته ويلازموا طاعته، ويقاربوا بين الخلق بمحاسن أقوالهم وأفعالهم فتسود فيما بينهم الألفة، فهم دعاة الألفة وحملتها الذين يألفون ويؤلفون.

الذين يألفون ويؤلفون ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف»[1]، وصدق صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن المريدين الصادقين، والسالكين المحققين، والسائرين على جادة الحق يألفون المشايخ إلف الفرع لأصله، ويتعشقونهم تعشق الحديد بالمغناطيس، فهم الذين يألفون بما تألّفوهم به الأساتذة من مكارم أخلاقهم، ورائق شهي أقوالهم، ولطيف حقائقهم، وحسن معاملاتهم معهم، حتى يألفونهم، وينظم إليهم كل من سبقت له من الله عناية.

ويؤلفون[2] وهم المشايخ المحققون، والسادات المقربون، يسري الحب إليهم في الأكوان، وينادى بمحبتهم في الملوان[3]، فلا شك أنهم الأخيار، ومع ذلك يؤثرون جليسهم ويواسون فليسهم، ويعذرون من قصَّر في حقوقهم، ويعرفون حق من له حقه كائن ما كان، ينزلون للناس على ما هم عند أنفسهم، إلا من عرفوا منه صدق الإرادة، وطلب الاستفادة، فإن لهم معاملات من حيث ما هو مقتضى إرادته، فللمريد معاملة غير معاملة عامة الخلق، فإذا رأى راء بهم هذه البشاشة والنزول عن الترفع والرئاسة، مع كمال المنزلة ورفيع المقام، لا محالة يروقه رؤية هذه الأخلاق، ومعنى يروق يحلو ويعذب إليه ذلك، ويحب ويشتهى ذلك، والرائق – الشهي – والحسن البهي، فلا أحسن من أخلاقهم، ولا أبهى

---

(١) أصل الحديث أخرجه أحمد في المسند من طريق أبي هريرة رضي الله عنه ٩/ ١٣٤، برقم (٩١٧٠)، وهو فيه أيضاً ١٦/ ٤٤٣ برقم (٢٢٧٣٨)، وأخرجه الحاكم في (المستدرك) ١/ ٢٣ من طريق أبي هريرة أيضاً، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد) ١٠/ ٣٥٠ في كتاب الزهد باب المؤمن يألف ويؤلف برقم (١٧٩٧٥) وقال: رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح، والحديث فيه أيضاً برقم (١٧٩٧٦) و (١٧٩٧٧) و (١٧٩٧٨) من طريق سهل بن سعيد وجابر بن عبد الله وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم.

(٢) أي والذين يؤلفون في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يَألفون ويُؤلفون**».

(٣) الملوان: الليل والنهار ينظر (القاموس) صـ١٧١٢، مادة ملا. وفي العبارة إشارة إلى حديث الشيخين: «إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل: إن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض».

من جميل أفعالهم، كيف وهم الذين يقولون فيمن تحقق منهم بخالص الحب وصافي الود، أنه به ينطق و به يبصر ويسمع ويبطش ويمشي[١]؟ وهو الذي حَسُنَ كل حُسنٍ بما وهبه، وتجمَّلَ كل جميل بما جمَّلَهُ، فلا جرم [أنه][٢] يروق ويحلو منهم كل ما صدر كائن ما كان؛ لأن ذلك صدر من حضرة الجمال، ومحتد الكمال، [فكان من شأنه][٣] أن يروق نظره لكل ناظر، ويطرب لفظه لكل خاطر، ولي في ذلك شعر:

يُهْدِيْ عَبِيْرَ التَّصَوُّفِ مِنْهُمُ نَظَرٌ ... يَرُوْقُ نَاظِرَ مَنْ فِي حَيِّهِمْ نَظَرَ

وَيُطْرِب الحَانُ حَادِيْهِمْ فَلَا بَصَرٌ ... يَنْظُرْ إِلَيْهِمْ فَيَسْعَى نَحْوَهُ ضَرَرَ

فهم الإخوان الأوداء[٤]، وهم الرحماء بينهم وعلى الأعداء الأشداء.

أهل الود هم أهل التصوف

وهم الأحباب نسبتهم إلى ذلك الجناب، فعليه اجتمعوا وعليه تفرقوا، لذلك قال الشيخ رضي الله عنه:

٢٠- هُمْ أَهْلُ وُدِّيْ وَأَحْبَابِي الذِّيْنَ هُمُو ... مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيُوْلَ العِزِّ مُفْتَخِرَا

---

(١) إشارة إلى حديث البخاري في صحيحه كتاب الرقائق، باب التواضع، الحديث (٦٥٠٢)، (فتح الباري ١١/ ٣٨٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه جاء في آخره «...فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه و لئن استعاذ بي لأعيذنه ...»)، قال الحافظ في (الفتح) ١١/ ٣٨٨: وقد استشكل كيف الباري جلّ وعلا سمع العبد وبصره إلى آخره؟ والجواب: قال الطوفي: اتفق العلماء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها، وأسند البيهقي في (الزهد) عن أبي عثمان الجيزي أحد أئمة الطريق قال: معناه كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الأسماع وعينه في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي، ومن أوجه معانيه: أن يكون معنى سمعه مسموعه؛ لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول، مثل فلان أملي بمعنى مأمولي، والمعنى أنه لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي، ورجله كذلك. وقد ذكر الحافظ ابن حجر في (الفتح) سبعة وجوه موجهة لمعنى الحديث فانظرها.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

(٤) هم الأوداء. أي الأحبة، والودّ وصف لكثرة المحبة ينظر (القاموس) مادة ودد صـ٤١٤.

هم السادة الأولياء، والعلماء الأصفياء، والأتقياء الأخفياء، المجتمعون على محبة الله تعالى، والمتحابون بروح الله، على موائد ذكر الله، الأوداء بعضهم لبعض، لا يتغير ودهم ولا صفو شربهم؛ لأن ما اجتمعوا عليه لا يعتريه التغير، والود هو خالص الإيثار بنفائس المحبوبات مع عدم الاستكثار، بل مع السرور والاستبشار، ومن أسمائه تعالى الودود، فأثر الاسم في الودود ظاهر على الوفاء بالعهود، في دار الدنيا وفي اليوم الموعود، فلهم كمال التخلق بهذا الاسم كما هو شأنهم في سائر الأسماء، إلا اسم الله فلهم منه التعلق لا غير، فهم أهل ودي الذين أُهلوا له في سابق العلم ولاحق الحكم، في أي وقت ومكان في سابق الزمان ولاحق الآن؛ لأن الرابطة سابقة قبل ظهور الترتيب في أشباح التركيب[(١)]، وهم أيضاً (**أحبابي**) جمع حبيب من محبوب ومحب، الذي حبهم أشرف الوسائل، وأقرب القرب، وأرفع المراتب والمنازل، الذين اجتمعوا بي، واجتمعت بهم على محبة الله، ولطيف روح الله، من مريد ومراد، ومقربين عارفين من أبدال وأوتاد، وزهّاد وعبّاد، ونجباء ومفردين وأفراد، جعلنا الله وسائر أحبابنا في الله من حزبهم، وأهل محبتهم وودهم، وناهيك بهؤلاء السادات الأمجاد، والأكابر الأفراد، من كمال العز ورفعة القدر الأثيل، [الذي لا يماثل][(٢)]، والعز الشامخ

---

(١) إشارة إلى أن للذرية الإنسانية وجوداً وسمعاً ونطقاً قبل بروزها إلى هذا العالم الدنيوي، ولكنه في مرتبة أخرى من مراتب الوجود ليست هذه المرتبة من الوجود الدنيوي، ومراتب الوجود كثيرة، ومنها ما ذكره الله تعالى في كتابه حينما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال الإمام الحداد رحمه الله تعالى: فقد استخرج الله هذه الذرية من ظهر آدم، بعد أن أودعها فيه، حين أخرجهم دفعة واحدة، ، لأخذ الميثاق عليهم، بالإقرار بالوحدانية والربوبية، وذلك بنعمان واد قريب من عرفات، وفي الخبر أو الأثر: أنه سبحانه لما أخذ عليهم ذلك الميثاق، كتب عليهم به كتاباً، و ألقمه الحجر الأسود، وذلك معنى قول المستلم للحجر، عند الطواف بالبيت العتيق: اللهم إيماناً بك، ووفاء بعهدك، وتصديقاً بكتابك. ينظر (سبيل الادكار) صـ١٧، بتصرف.

(٢) زيادة من (ب).

الرفيع الذي لا يطاول، لذا قال: (**هم الذين ممن يجرُّ ذيول العزِّ مفتخرا**) بمحبوبه، وشرف مقام مطلوبه بكمال عبوديته لروح عالي ربوبية سيده ومعبوده.

روي أن عتبة الغلام[1]، خرج ذات يوم يختال في مشيه، فقالت له رابعة: ما هذه المشية التي لا تعهد فيك! فقال: ومن أحق مني بذلك؛ وقد أصبحت له عبداً وهو لي رباً[2].

ومن تَخلُّقِهِمْ بهذه العزة في عالم الخلق، ما كانوا عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الله فيهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، هذه ذلتهم في خالص عبوديتهم، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] هذا من التخلق بالعزة الإيمانية، المتصلة بعزة الرسالة الفائضة عن العزة الإلهية، حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال بعضهم: لولا أن التواضع يحسن بالفقراء، لحُقّ لهم أن يتبخترون في مشيهم؛ لأن الفقراء مقدَّمون في دار السلام، ومصدرون في أعظم مقام، حين يشتد اللزام ويحتد الخصام. وأعظم بهذه من ولاية ودولة حين يتبرأ كل ذي دوله من دولته، وكل ذي ولاية وصوله كذلك، ويعتذر كل قائل من قوله، ويخرج كل ذي حول من حوله، حيث يقال للفقراء: ((قوموا اليوم دولتكم أشفعوا فيمن أطعمكم أو سقاكم أو كساكم))[3]،

---

(١) هو عتبه بن أبان الغلام، وهو من أشراف العرب، سمي غلاماً لجده واجتهادها لا لصغره، من أقواله: من سكن قلبه حبه لا يجد برداً ولا حراً ولا جوعاً، أسند الحديث عن جماعة من أجلة التابعين وقتل شهيداً في بعض الغزوات. تنظر ترجمته في (الثقات) لابن حبان ٧/ ٢٧٠، (حلية الأولياء) ٦/ ٢٢٦، و(الكواكب الدرية) ١/ ٣٦٤.

(٢) هكذا وردت الحكاية في (الكواكب الدرية في تراجم السادات الصوفية) ٦/ ٣٦٦.

(٣) فيه إشارة إلى ما أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي رضي الله عنه: اتخذوا عند الفقراء أيادي، فإن لهم دولة يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: سيروا إلى الفقراء، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا، قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: ((**إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة**)) وأورد=

فيقومون ينظرون في أهل الموقف نظر الملوك الأعزاء، يتطاولون في ذلك اليوم على الخلائق، ويتبوءون من الجنة حيث شأوا، تحفُّ بهم الكرامة حيث آووا، وأي فخر وعزة أعظم من هذه المنزلة عند مليك مقتدر، جعلنا الله منهم، الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**الحياة حياتكم والممات مماتكم**))[1]، وأي عز يفخر ذلك ولو ذهبنا نتتبع ما أكرم الله به الفقراء ووعدهم به من كرامته لهم لاستدعى إلى إطالة وفي الإشارة إلى عظيم البشارة كفاية لمن فهم المراد وفي ذلك أقول شعراً:

حَبَبْتُهُمْ مِنْ قَدِيمِ الرُّوْحِ حِينَ أَتَى ... عَلَى حِيْنٍ مِنَ الدَّهْرِ فِي ذَرَّاتِنَا ظَهَرا

فَأَنْتَجَ الحُبُّ صَافِي وِدِّ كُلِّ فَتَى ... مِنْ سَادَةٍ مَنْ نَالَ عَنْهُمْ وَمَنْ حَضَرَا

واجتماع الفقراء على الود والوفاء من جملة نعم الله وجليل مواهبه فلذلك طلب الشيخ رضي الله عنه بقوله:

٢١- لا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعَاً ... وَذَنْبُنَا فِيْهِ مَغْفُوراً وَمُغْتَفِرَا

لا زال أي لا تحوّل ولا تزلزل عن ثباته شملي، وهو التجافي بكلية ذاتي وصفاتي واتصال جميع لطائفي وأركاني وإحساسي الحاسة، وكل كوائني اللطيفة والكثيفة، وجميع ما يشتمل عليه جمعيتي بهم أي بالسادة الفقراء، فالاجتماع بهم مع استكمال آدابهم وما اصطلحوا عليه من الصدق في الله ولله وبالله مجتمع غير متفرق في مساغب التفرقات الغيرية، وناصبة في متاعب الأسباب البعدية، فكل جمع في الله يدوم وينمو، أو تتضاعف به المثوبات وتصفوا به الحالات، وتتوالى به

الاجتماع بالكمّل غنمٌ كله

=الحديث الغزالي في (الإحياء) في كتاب الفقر والزهد، باب فضيلة الفقر مطلقاً وقال العراقي في (المغني) وإسناده ضعيف.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد، باب فتح مكة، (شرح صحيح مسلم) للنووي صـ١٣٨٢، الحديث (٨٦) والحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بلفظ: ((**فالمحيا محياكم والممات مماتكم**)).

المسرات دنيا وأخرى، وكل جمع في غيره يؤول إلى الشتات، وتعلوه فترة الظلمات، وتصير عاقبته إلى العداوات، ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، حتى يعادوا أخص من صحبوه، وفي طول أوقاتهم أحبوه في غير الله، كأركانهم وسائر أعضائهم وجوارحهم ومن كان يواليهم في الدنيا، وأما اجتماع أهل التقوى فلا يزال ينمو ويرقى؛ فإنهم لا تخالف بينهم ولا تحالف، بل هم الإخوان والأصدقاء والأخدان في حضرة الرحمن، ومشاهدة الديان في سائر الأوان والأزمان بأخوة الإيمان، إخوان على أسرّة السرور وأرائك الحبور، لا يتطرق إليهم في محبتهم فتور ولا مدابرة ولا نفور، وذنبنا فيما لم نوفِ به من حق الاجتماع فيه وما قصرنا عن أداء ما التزم واقتراف ما اجترم مغفور، أي مستور لم يظهر على منشور الديوان، ولم يُشهِدوه الملكان، ولم يظهر على ظواهر الأركان، ومغتفرا بستر الله، أي بعد ظهوره على صحائف منشورة، فالمغفور هو المحو وهو أثر اسمه العفو، والمغتفر هو الذي استتر بعد ما ظهر وهو أثر اسمه الغفور، فالله يغفر لنا ولأحبابنا ومن أحاطت عليه مودتنا، ومن اجتمعنا به في الله واجتمع بنا، فالله يجمع منا كل متفرق بهم ويجبر منا كل منكسر.

الخاتمة في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

ثم بعد تمام كل كلامه ختم بالصلاة والسلام على من لفواتح الأمور ختام قال رضي الله عنه:

٢٢- ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَنْ وَافَى وَمَنْ نَذَرَا

ثم بعد ما ذكر من سادات الأتباع وخواص الأمة، وشيء من جليات مشرقات صفاتهم، وصفاء أحوالهم، وسديد أقوالهم وأفعالهم، الذي هو نتيجة اتباعهم لسيد ولد آدم، وعروس مملكة العالم، مشيراً إلى أن ذلك نعمة صدرت من فائض بحر كرمه، ومجّةٌ من قاموس لجّة عباب تيار خضم جوده العميم،

ومنصةٌ من مظاهر منصبه[١] الجسيم، الذي تجلى نور هديه فاهتدى به الكليم، فاستضاء بضياء الاقتباس ما أزال عنه الالتباس، مثنياً عليه ومصلياً ومسلماً، ليكون لأداء حقه مؤدياً، والصلاة في اللغة: هي الدعاء بخير، وهو دعاء الله أن يصلي ويسلم أي يرحمه، ويصل روحه العلية بأنواره، ويصل سره بمشرقات أسرار صفاته، ولوامع مشرقات تجليات ذاته، مع التعظيم وصونه عن النقائص البشرية، والتسليم عليه فيما تجلى به لديه مما أتحفه به وأنعم؛ لأن تسليمه نهاية اللطف وغاية العطف.

(**على المختار**) الذي اختاره الله على سائر بريته، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله اختار من العرب كنانة، واختار قريشا من ولد النضر، واختار بني هاشم من قريش، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار**»[٢]، ثم وصفه بأخص صفاته، وخلاصة خاصة أخلاقه، وهي الفوز بالعطاء، والكمال بالوفاء، قال الله جلَّ من قائل: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان:٧] في امتداح الأبرار الذين صارت مخافة الله لهم شعار، وهو صلى الله عليه وآله وسلم (**خير من أوفى**)؛ لأنه الذي شرع لأمته الطريق، وأبان لهم سبيل التحقيق، فهو الشارع لتلك المشارع، وهو الداعي لكمال تلك المنازع، المشاهد بأنوار النبوة ما لم يحظ به غيره من أسرار الحقائق، ورقائق الدقائق، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما شرع أن يختم بها كل دعاء، ويتم بها كل كلام،

---

(١) في (ج) جوده.

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) وأورده الهيثمي في (المجمع)، كتاب علامات النبوة، باب كرامة أصله صلى الله عليه وآله وسلم ٨/ ٢٨٠، الحديث رقم (١٣٨٢٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ولفظه مختصراً: «**إن الله اختار خلقه، فأختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً، ثم اختار قريشاً فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني، فلم أزل خياراً من خيار**». قال الهيثمي في آخره: وفيه حماد بن واقد ضعيف يعتبر به وبقية رجاله وثقوا.

وفضلها أكثر من أن يحصر، وأشهر من أن يذكر، لما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم من الحث عليها، كقوله صلى الله عليه و آله وسلم لمن قال يا رسول الله: اجعل لك الربع من صلاتي، فقال صلى الله عليه و آله وسلم: ((**وإن زدت خير لك**))، حتى ذكر النصف وقال: أو اجعل لك صلاتي كلها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**إذاً يغفر ذنبك وتكفى همك**))[١]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**أقربكم مني مجلساً أكثركم عليَّ صلاة**))[٢]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((**من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه بها عشرا، ومن صلى علي عشرا صلى الله عليه بها مائة**))[٣]، وناهيك بها من فضيلة وكمال، ووسيلة لمن وفق لها جعلنا الله من أهلها.

الخاتمة وفيها إجمال ما تقدم من أحوال القوم وآدابهم

خاتمة: ما تقدم من هذه المنظومة لجملة من صفات الفقراء المتحلين بكمال المعرفة، ورفيع المقام وسني الحال، مما يحتاج إليه كل من أراد الاتصاف بصفاتهم، واللحوق بهم في جميع مصادرهم ومواردهم؛ لأن فيها ما يشير إلى آداب المراد

---

(١) إشارة إلى حديث أبي بن كعب رضي الله عنه الذي قال فيه: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذهب ربع الليل، وفي رواية ثلثا الليل، قام فقال: ((**يا أيها الناس أذكروا الله، أذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه**)) قال أبي بن كعب: فقلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ((**ما شئت**)) قلت: الربع، قال: ((**ما شئت، وإن زدت فهو خير لك**)) قال: قلت: فالنصف، قال: ((**ما شئت، وإن زدت فهو خير لك**)) قال: قلت: فالثلثين، قال: ((**ما شئت، وإن زدت فهو خير لك**)) قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: ((**إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك**)) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، الباب رقم (٢٣)، ٣/ ٣٦١، الحديث رقم (٢٤٥٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) زيادة من (ب).

(٣) أصل الحديث أخرجه الطبراني في (الصغير) و(الأوسط) وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد)، كتاب الأدعية، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء وغيره ١٠/ ١٨٤، الحديث رقم (١٧٢٩٨) ولفظه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((**من صلى علي صلاة واحدة، صلى الله عليه بها عشراً، ومن صلى علي عشراً، صلى الله عليه مائة، ومن صلى علي مائة، كتب الله له براءة من النفاق بين عينيه، وبراءة من النار، وأنزله الله يوم القيامة مع الشهداء**)). قال الهيثمي: وفيه إبراهيم بن سالم بن سلم الهجيمي، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

والمريد جميعاً، وما يُعرِّف الأشياخ والقادة بحقوق أتباعهم، وما ينبغي أن يعاملوهم به من: اللطف، والرفق، والنصيحة، والتغاضي عن زلاتهم، واحتمال هفواتهم، والتنزل لهم إلى ما يفهمونه من معهود خطابهم، والمسامحة عن تقصيرهم، وترك المشاحة في الألفاظ، بل مما تستهجنه الفصحاء، وفي ما بينهم من المعاملات في جميع الحالات، وطرق تربية الأشياخ للأتباع في سائر الأحوال والأفعال، يحتاج إلى تتبع دقائق العلوم والآداب، وحقائق المعارف، حتى ينزل كل مريد على خاصة استعداده مما في وسع حقيقته، وتأهل حاله له من العلوم والأعمال، حتى أن أحداً يصلح له ما لا يصلح للآخر، فمن المريدين: من يصلح للتجريد، ومنهم من لا يصلح ولا يسعه إلا التسبب[1]، ومنهم: من يقام في العلوم واستخلاص دقائقها، واستنباط رقائقها، واستكشاف حقائقها، واستفتاح أسرارها، والاطلاع على أغوارها، واقتباس أنوارها، ومنهم: من يقام في الأعمال والإخلاص فيها، واستخلاصها من شوائبها، وتنقية عيوبها، والتوسع في ميادينها، واسترباح تجاراتها من أصول فروضها وفروع نوافلها، واختيار فاضلها عن مفضولها، ومنهم: من يتأهل للأسفار، وركوب الفيافي

---

(١) أشار إلى هذين الحالين الإمام ابن رسلان في زُبده حيث قال:

وطالب التجريد وهو في السبب ... خفي شهوة دعت فليجتنب
وذو تجرد لأسباب سأل ... فهو الذي عن ذروة العز نزل
والحق أن تمكث حيث أنزلك ... حتى يكون الله عنه نقلك

والمعنى أن من أقامه الله في الأسباب التي هي الحرف والصنائع فطلبه للتجريد مع إقامة الله له في الأسباب من الشهوة الخفية لعدم وقوفه مع الله تعالى فيما أقامه فيه، وذو التجرد الذي أقامه الله في التجريد عما يشغله من الله تعالى إذا طلب الدخول في الأسباب والاهتمام بتحصيلها فهو الذي انحط ونزل عن ذروة العز العلية إلى حضيض الرتبة الدنيئة وسوء الأدب مع الله تعالى، لما فيه من مصادمة الربوبية بالتدبير مع الله، والأصلح لك أن تمكث حيث أقامك الله وارتضاه لك، وأن تترك التدبير لنفسك والاختيار، وقد توسّع الإمام ابن عطاء الله في شرح هذين المسلكين في كتابه الموسوم بـ(التنوير في إسقاط التدبير) فراجعه. ينظر (غاية البيان) صـ٥٠٤ بتصرف.

والقفار، ومنهم: من لا يصلحه إلا ملازمة الديار، لصحبة الأخيار، وتتبع الآثار، إلى غير ذلك من اختلاف استعدادات القوابل، والشيخ في ذلك ينزل كل مريد على ما هو مستعد ومؤهل له، كالطبيب في معرفة علاجات المرضى وطريق الصحة، ليلحق المريض بالصحيح بالعلاج، ويَعذُب برائق ريقه منهم كل أُجاج، وله تربية بالأبوة، [وتربية بالأمومة، فيربي بدائرة الأبوة][(١)]، من حيث دائرة العبودية وتحقيق علوم السنة الأحمدية، ويربي بدائرة الأمومة من حيث الحقيقة بلحظاته وخوارق نظراته، فله من كل علم الحظ الأوفر، ومن كل نصيب الأكمل، ومن كل مقام الأصل الأفضل، فلا بدع أن يتخلق لكل مريد ومستفيد بما يوافق مزاجه، وما هو مقتضى علاجه، وأما آداب المريد مع الشيخ فقد احتوت على جملة منها هذه (الروضة الخضراء والدرة الزهراء)، وبسط آداب المريد أن يقال فيه أن كل ما يطلب من الآداب مع الوالد الصوري فأحق أن يطلب مع الأب المعنوي الروحي [وزيادة، فقد قيل إن لعقوق الوالدين توبة واستدراك][(٢)]، ولا استدراك لتوبة عقوبة الأستاذ؛ لأن والد الشبح[(٣)] يربي لحظه، وما يعود عليه من إحياء اسمه وظهور نسبه، وجمع شتات أغراضه وإيصال ما يوافق أغراضه هذا في الدنيا، والآخرة للانتفاع بدعائه ومناصرة أوليائه وإرغام أعدائه، وكفل من يتوقع منه الكفالة من حرمه وصغار أطفاله، وأما الأستاذ ففي معزل من ذلك كله، وإنما مراده إنقاذ مهجته، وإيضاح محجّبته، ووصوله إلى مأموله، فيربيه له لا له، ويتحمل متعبات مشاق أحواله لا لغرض يناله، فكيف لا يكون بالاحترام أولى، وبالمودة أحق، وبالأقربية أدنى.

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) زيادة من (ب).

(٣) أي الوالد من النسب الذي انحدر منه الجسم المعبّر عنه بالشبح. وفي نسخة (أ) الشيخ.

آداب المريد مع الشيخ في المقال والفعال

وله آداب أخرى في السؤال ومحاورات المقال، وفي سائر الأفعال، فمن جملة ذلك أن لا يرجح عمله على عمله، ولا فعله على فعله، بل يكون بما يبرز من الشيخ واثقاً، وبما يشير إليه متحققاً، وبمراضيه وآدابه متخلقاً، حتى يتشابه الماء بالزجاج فيتشاكل، ويندرج الفرع في الأصل فيتماثل، ويصير المريد واقفاً على وفق ما يريد الأستاذ من الأمور، لا يسأله عن شيء حتى يحدثه به أو يعلم منه الرضا بالسؤال فيه، ويعلمه بجميع أحواله، ولا يكتمه دقائق خفايا أفعاله؛ لأنه أشفق عليه من نفسه، وأعلم بما يصلحه من دائرة حسه، فليحذر الخيانة، ويصلح البطانة[1]، وليحفظ الأمانة، ولا يقول قال فلان خلاف ما تقول؛ لأن ذلك ترجيح القائل والمقول، وليحافظ على مراقبته، والمثول بين يديه لا سائل ولا مسئول، وينظر ما كان عليه من الآداب أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ففيها ما يدل لكل موفق على الصواب، مما أدبوا به معه صلى الله عليه وآله وسلم وما جُبِلوا[2] عليه من الآداب.

فالشيخ على المريدين خليفة الرسول و نائبه في تأديب من أراد السلوك على منهاجه، فيقوم اعوجاجه، ويصلح بآدابه فساده في أغواره وأنجاده، ويُكمِّل ما نقص من رتب الكمال، ويصفي ما اعتراه من الكدورة الطبيعية، ويخلصه من شؤم كثائف البشرية، وإذا أوقفه الشيخ على ورد من الأوراد فلا يختار عليه غيره، وإن كان في نظر عقله أنه أكمل، وفي نقله أنه أفضل، فلهم نفوذ البصيرة فيما هو معراج السالك، لذا كان بعض مشايخ الطريق إذا طلب منه المريد التلقين، يعرضه على سائر الأسماء الحسنى، فأيما اسم حصل [به] عند المريد التأثر سلكه على مقتضى ذلك، إن كان ذكراً أو عملاً أو تخلقاً، وفي الغالب أن أقرب طرق الوصل، وأنجح وسائل الإرادة، دوام ذكر لا إله إلا الله، على ما اصطلحوا

---

(١) البطانة: السريرة. ينظر (القاموس) مادة بطن (١٥٢٤).

(٢) الجبلة: الخِلْقَةُ والطبيعةُ: ينظر (القاموس) مادة جبل.

عليه أهل هذه الطريق من الآداب، وأضافوا إليه من الأعمال، فكل ذكر غيرها يختص بحال، وهذه الكلمة طلسم جامع، ومرهم نافع، ومجرد ذكرها من غير تلقين وتربية وتحكيم يحصل به جزيل الثواب وحسن المآب، فهي أفضل الأذكار كما ورد عن النبي المختار: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له**»(١)، فناهيك بذلك من فضل عظيم، وكرم عميم، أن جعل الأفضل في العموم، وأما في الآخرة فحجة وثواباً، وأما في يوم النشور وبعثرة القبور، فإن ذاكروها ينفضون رؤوسهم من الثرى، بأبدان عليها أنوار البقاء مشرق، ولحطب السيئات محرق، قائلين: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور»، خفف عنهم الذكر الأوزار، فوردوا إليه القيامة خفافاً عن ثقل ما تحمَّله من لم يحظ بها، ولم ينشق عبيرها، ولم ينشر له منشورها، ورفيع الدرجات في أعالي الجنات ونيل الكرامات، فجزاه الحسنى وأفضل الحسنات، بعد جواز ذاكرها كبرق خاطف في أصعب الطرقات وأدق العقبات، وورود الحوض المورود وأوفر حظ من المقام المحمود، هذا وأعظم منه ما ينال ذاكرها من جزيل ثوابها، وأما الترقي بها في المقامات والأحوال، ونيل أكمل مراتب الوصال، والنزول من عالم البعد والحجاب، إلى مواطن الكشف والاقتراب، والله أعلم في الغالب لا يحصل بغير سلوك طريقها، على ما اشترطوه الواصلين وكمل العارفين، من التحكم لإمام في وقته متحل بكمال الآداب، ومشاهد لنهاية الغايات، من الكشف والعيان، الذي هو محتد أرباب النهايات، فعندما يلقي

---

(١) أخرجه مالك في (الموطأ) في كتاب الحج باب فضل يوم عرفة ١/ ٥٦٥، الحديث (١٤٦٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له**». وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب: في دعاء يوم عرفة ٤/ ٤١٠، الحديث (٣٥٨٥) بنحو ما تقدم وزاد: «**وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**». وأخرج البيهقي نحوه في (شعب الإيمان) في باب المناسك ٣/ ٤٦٢ الحديث: (٤٠٧٢). وأورده المتقي الهندي في (كنز العمال) ٥/ ٧٣، الحديث (١٢١٠٨).

المريد إليه نفسه، ويطرح منه جنه وأنسه، أخذ بزمام ناصيته، ودله على مطلع شموس قدسه، فهو فيه بالخيار فيما يراه الأستاذ، إن ألزمه الخلوة وإدامة الذكر لهذا الذكر بعد الفرائض ورواتب النوافل بكمالها، وإن شاء ألزمه الذكر المذكور، ونشر له علم منشور، وألزمه الإخلاص عن طلب حظ أو ملاحظة منزلة، بل يكون طلبه رضا المذكور ودوام الحضور، فعند ذلك يحظى بمراده، ويرتوي بماء الشهود فؤاده، وتهطل عليه هواطل التحقيق من علوم الحقائق والحكم وطرائقها كما ورد: ((**من أخلص لله أربعين يوماً جالت روحه في الملكوت الأعلى**))[١]، وعادت بظرائف الحكم، فنطق بها قلبه على لسانه، وذلك لأن الإخلاص يحصل به التخلص من الحجب التي ركبت في خلقة الإنسان، كل طور منه حجاب، لما روي: ((أن الملائكة لما خمرت طينة آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في تكميل صورته الحسيّة فكل يوم من هذه الأربعين انطوى على حجاب من هذه الأربعين))[٢]، فشرع أئمة الصوفية هذه الأربعينية؛ لما أطلعهم الله على هذه الحجب طلباً للتخلص منها؛ لما نبه صلى الله عليه وآله وسلم على طريق التخلص منها بالإخلاص، ورأوا الأربعينية أعون على الإخلاص، وإلا فما الشرط في ذلك إلا الإخلاص لا غير، وكانت كلمة التوحيد أعون لذلك، وكانت أقرب الطرق المسلوكة في هذا؛ لأنه ورد عن بعضهم أن عملين لا يدخلهما الرياء: وهو التوحيد بذكر لا إله إلا الله، والعمل الثاني: الصلاة والسلام على رسول الله صلى

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية، والإمام أحمد في الزهد، وابن أبي شيبة في المصنف وغيرهم وقد صحح إسناده السيد أحمد بن الصديق الغماري في كتاب (عواطف اللطائف من أحاديث عوارف المعارف) ٢/ ٣٨٢ الحديث رقم (٢٠٦).

(٢) أورده الحافظ المناوي في (فيض القدير) ٦/ ٤٣ عند شرحه لحديث: ((**من أخلص لله أربعين يوماً**)) وقال: وأخذ جمع من الصوفية منه أن خلوة المريد تكون أربعين يوماً واحتجوا بوجوه أخر أظهرها أنه سبحانه خمر طينة آدم أربعين صباحاً وفي (شرح الأحكام) لعبد الحق: هذا الحديث وإن لم يكن صحيح الإسناد فقد صححه الذوق الذي خصص به أهل العطاء والإمداد وفهم ذلك مستغلق إلا على أهل العلم الفتحي الذي طريقه الفيض الرباني بواسطة الإخلاص المحمدي.

الله عليه وآله وسلم، لذلك اختاروا للمريد لزوم هذه الكلمة المحصلة لكمال الإخلاص دون غيرها من الأوراد، وليكن في هجيره مستحضراً لعظمة المذكور، ومستقصياً لنفي الأغيار ومحو الآثار عند الأخذ في النفي، محققاً معنى التخلي عن كل شيء سوى المذكور الحق، أو ما أثبته الحق سبحانه، وهو: القبضة النورية المضافة إليه، حيث ورد في حديث قدسي: ((**قبضت قبضة من نوري فقلت لها كوني حبيبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم**))[١] فافتتحت من تلك القبضة سائر المكونات، فهي الأصل في التكوين فلا سبيل لنفي هذه [القبضة][٢]، وقد علمت أنها أصل التكوين، فالمنفي إضافتها إلى نفسها دون مكونها فثباتها به لا بها، فمن هنا شرع مضافاً إلى إفراد الحق بالإلوهية ذكر مجموعها وطلسم متفرقاتها بالرسالة، التي هي العامة في الكافة، فتستلزم إثباتها عامة إثباتها خاصة لمن دونه من سائر الرسل، وبإثباتها يستلزم إثبات نبوته ونبوة غيره من الأنبياء، وبإثباتها يجب ثبوت ولايته، وبثبوت ولايته يجب إثبات الولاية ممن قامت به مرتبته من الأنبياء، والاختصاص للأولياء لا محالة، واستحالة ما لا يجوز على الرسالة، وجواز مما هو مقتضى البشر من غير نقص في ذلك المنصب فلذا شرع بعد إكمال توحيد الإله الحق محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مشيراً إلى الجانب الأيمن بها كالمستثني له من النفي الكلي، وقد أكمل الذاكر توحيد الله بقوله لا إله إلا الله، فإنها طلسم جامع للواجب لله، والجائز له، والمستحيل عليه، فلذا يمدها على (إله) دون (لا)، فإنه يقصر في مد (لا)، ويجعل المد على (إله) من غير أن يشبع فتحة (إله) لئلا يظهر منها تثنيه، ولا يسكنها ولا ينونها؛ لأن السكون والتنوين

---

(١) بحثت عن هذا الحديث ولم أجده، ونورانية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثابتة بالنص القرآني ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] وغيرها من الآيات.

(٢) زيادة من (ب).

يشعران بالقطع المحدود، ويأخذ في حال مده بالنفي من جهة اليسرى مشيراً إلى نفي السوى، ثم عند وصوله بالإشارة إلى المنكب الأيمن يشير إلى الأرض، ثم يرفع رأسه إلى السماء مشيراً إلى نفي كل معبود دون الله في الأرض وفي السماء، ثم يشير في كلمة الإثبات بقوله إلا الله إلى محل الاعتدال، مائلاً إلى الأيسر نحو موضع القلب اللحمي من حيث ابتداء في النفي، وهكذا فيقول محمد رسول الله عند ابتداء الذكر ثلاثاً وأربعاً على حسب ما يشير إليه [صاحب][1] الوقت، وفي الثلاث كفاية؛ لأنها مشيرة إلى ثلاث مراتب، الوجوب والجواز والاستحالة، فيكفي عند ابتداء أخذه في المجلس، ثم بعد كمال المجلس يختمه بثلاث أيضاً؛ ليعود بعد أن أكمل الجمع وأخذ منه البصر والسمع، فيعود لإكمال حق العبودية والوفاء بمقام الربوبية، قائلاً محمد رسول الله، مثبتاً لشرعه ومحققاً لاتباعه في محوه وصحوه، فبذلك ينجح ويفلح، ويحصل في مقام البقاء والصحو، فيثبت ما أثبته الحق، وينفي ما شرع له نفيه، ويكون ذلك إما في الخلوة أو في الجلوة والملا بالمداومة من غير فتور، مع تحصيل ما طلب تحصيله من الواجبات، وتحصيل الجماعات إن كان مقيماً بين ظهراني الخلق، ولا يسقط عنه إلا بعذر إما لغلبة أو عذر ما، والله أعلم أنه الذي حمل الأكابر على ملازمة الخلوات في الفلوات وبطون الأودية، بحيث لا يطالبون بوجوب الجمعة والجماعات، لما عندهم من الجمعية والاستغراق بالمعية، وليست الخلوة شرط؛ وإنما الشرط الإخلاص، فحيث حصل المريد عليه فقد حصل ما هو المطلوب، سواء كان في خلوة أو جلوة، والشيخ في تحقيق ذلك وتخليصه من شوائب الهوى وتلبس الرعونة واستطالة الدعوى قائم عليه، وناظر على جميع أحواله في سائر تقلباته، ومنبهاً له من رقدات غفلاته وتخلل فتراته، فلا يزال على المريد حاكماً وفي جميع أحواله متحكماً لا ينفك عنه في غيبة ولا حضور؛ فبذلك يكون المريد سالكاً في أشرف

---

(١) سقط من (أ).

المسالك، ومع ذلك الشيخ يختار الله له في كل ما يأمره به له ولنفسه، ويوقف نفسه ومريده بين يدي الله توقف الاضطرار من عدم الحول والقوة وترك التدبير والاختيار، ويستنظر من الله الهداية للصواب فيما يبرز عنه من الخطأ في السؤال والجواب، ويخرج عنه ما هو مستكن في نفسه من الشهوات، ويدرجه في العزائم، ويرقيه في المقامات، وينزله على تحقيق الحالات، ويحوز به على ملكوت الأرض والسموات، ويعلق همه بإله البريات، ويحفظ المريد حق شيخه في الحياة وبعد الممات، من الوفاء له والأدب معه، ويحيي ما غرسه الشيخ من أقواله الصائبات، وأفعاله المرضيات، في أرض مقابليه على ممر الأوقات، فإنه يبذر بذر السعادة، ويغرس غرس الإفادة، في فؤاد المريد، فلا يزال يتوالى عليه بركاتها وثمراتها بالمزيد كل أوان، وذلك ببركات المراقبة لأحواله ومشاهدات أفعاله، وحسن تلقّي أقواله، ولكن أين من تحقق للمريد ذلك؟[١] وأين المريد الطالب لما هنالك؟ فقد درست تلك المسالك من أزمان، وهي في الانتقاص إلى الآن، فالله المستعان وعليه التكلان، وقد آن لنا أن نقتصر على ذلك بهذه النبذة اللطيفة، عن بسط ما ينبغي للمريد أن يتأدب به، والمراد أن يتخلق مع المريد، مصلياً ومسلماً على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[٢].



---

(١) أي أين من يجزم ببلوغ المريد إلى هذا المقام السامي، أو لعل في العبارة تحريف من النسّاخ ويكون صوابها: ولكن أين المريد من التحقق بذلك؟.

(٢) وجاء في آخر النسخة (ب) وكان الفراغ من رقم كتاب (الروضة الخضراء والدُرة الزهراء في كشف معاني ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء) يوم الأربعاء في ٢٤ من محرم سنة ١٣٠٣هـ بقلم الفقير إلى الله تعالى محمد بن محمد الجازاني وصلى الله على سيدنا محمد و آله وصحبه وسلم .

مصادر ومراجع التحقيق

- القرآن الكريم.
- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، تأليف العلامة المحقق محمد ابن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، طباعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- إحياء علوم الدين، لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، طباعة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تأليف علامة حضرموت ومفتيها السيد عبد الرحمن بن عبيدِالله السقاف، طباعة دار المنهاج، عناية محمد أبو بكر باذيب ومحمد مصطفى الخطيب، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
- الأعلام، لخير الدين الزركلي، طباعة دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٢م.
- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تأليف الإمام العلامة عبد الوهاب الشعراني، تحقيق طه عبد الباقي سرور والسيد محمد عيد الشافعي، طباعة مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- تاريخ الخلفاء، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق ودراسة مصطفى عبد القادر عطا، طباعة مكتبة مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الثالثة.

- تاريخ حضرموت، للسيد المؤرخ صالح بن علي الحامد، طباعة مكتبة الإرشاد، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للإمام الحافظ أبي العلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، طباعة دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ترجمه الحبيب علي بن حسن العطاس، للإمام العارف علي بن عبد الله باراس (مخطوط).
- تفسير الفاتحة الكبير المسمى بالبحر المديد، تأليف الإمام العلامة أبي العباس سيدي أحمد بن عجيل الحسني التطواني، تحقيق بسام محمد البارود، طباعة دار طوق النجاة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، تأليف العلامة محمد بن عبد الرؤف المناوي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، طباعة درا الفكر العلمية.
- جامع الشروح والحواشي، تأليف السيد عبد الله بن محمد الحبشي، طباعة المجمع الثقافي أبوظبي، الإمارات، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذي، للإمام المحدث أبي عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق محمود محمد حسن نصار، طباعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- حقائق عن التصوف، للشيخ عبد القادر عيسى، طباعة دار الفرقان بحلب، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- خلاصة الخبر عن بعض أعيان القرنين العاشر والحادي عشر منتخب من السناء الباهر وعقد الجواهر والدرر، تأليف العلامة النحو عمر بن علوي بن أبي بكر الكاف، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، دار المنهاج.

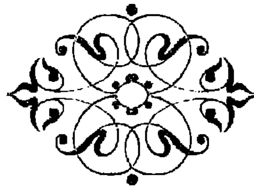
- الرسالة القشيرية في علم التصوف، للإمام العارف أبي القاسم القشيري، تحقيق وتعليق فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود، طباعة دار الخير، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- رسالة المسترشدين، للحارث المحاسبي أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ عبد الفتاح أبو غده، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- سبيل الادكار والاعتبار بما يمر بالإنسان وينقضي له من الأعمار، للإمام شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي رحمه الله تعالى، طباعة دار الحاوي، الطبعة الثامنة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، طباعة دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- الشامل في تاريخ حضرموت، للعلامة المؤرخ علوي بن طاهر الحداد.
- شعب الإيمان، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، طباعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، طباعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- عواطف اللطائف من أحاديث عوارف المعارف، تخريج الإمام الحافظ أبي الفيض السيد أحمد بن محمد بن الصديق الحسيني الغماري المغربي، اعتنى به أديب الكتاني ومحمد محمود مصطفى، طباعة المكتبة المكية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

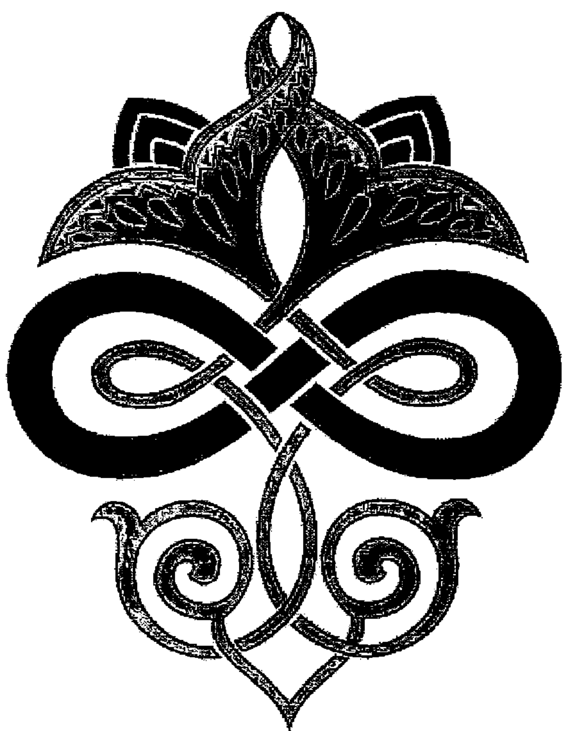
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية، طباعة دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طباعة دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- القاموس المحيط للفيروزآبادي، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، طباعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- كتاب التعريفات، للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، طباعة دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- كتاب الثقات، لابن حبان تأليف الإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي السبتي، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين وتركي فرحان المصطفى، طباعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للباحث العالم محمد بن علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة الدكتور رفيق العجم، طباعة مكتبة لبنان، ناشرون، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، أشرف على طباعته وتصحيحه والتعليق عليه أحمد القلاش، طباعة مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للعلامة علاء الدين علي المتقي الهندي البرهان فوري، طباعة مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، تصحيح الشيخ بكري حياني والشيخ صفوة السقا.
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، للإمام العلامة زين الدين محمد ابن عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد أديب الجادر، طباعة دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي المصري، تحقيق عبد القادر بن أحمد عطا، طباعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد بن علي الصابوني، طباعة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي رحمهما الله تعالى، توزيع مكتبة المعارف الرياض، طباعة دار المعرفة بيروت.
- مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، شرحه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر، طباعة دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي، تأليف العلامة الجليل محمد بن أبي بكر الشلي، بتقديم العلامة محمد بن أحمد الشاطري، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، تأليف عبد الله بن محمد الحبشي، طباعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبع سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- المصباح المنير معجم، تأليف العالم العلامة أحمد بن علي الفيومي، طباعة دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع وهو الموضوعات الصغرى، للإمام العلامة الفقيه المحدث علي القاري الهروي المكي، تحقيق وتعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غده، طباعة مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- المطرب بمشاهير أولياء المغرب، تأليف الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي، طباعة دار الإيمان، الرباط، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحاله، طباعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- معجم المطبوعات العربية والمعربة، تأليف يوسف اليان سركيس الدمشقي، طباعة دار صادر.
- المعجم الوسيط، تأليف مجمع اللغة العربية بمصر، طباعة مكتبة الشروق الدولية الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تأليف الإمام الشيخ شمس الدين محمد بن عبد المعطي السخاوي، صححه وعلق على حواشيه الشيخ المحدث عبد الله بن محمد الصديق الغماري، طباعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الموطأ، لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه، رواية أبي مصعب الزهري المدني، حققه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل، طباعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

- النفائس العلوية في المسائل الصوفية، للإمام شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي الشافعي، طباعة دار الحاوي، الطبعة الثامنة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق محمود الطناجي وطاهر الزواوي، طباعة مؤسسة التاريخ العربي دار إحياء التراث بيروت لبنان.
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، للعلامة عبد القادر بن شيخ العيدروس العلوي الحضرمي، طباعة دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، تحقيق الدكتور أحمد حالو ومحمود الارناؤوط وأكرم البوشي.





شرح قصيدة

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء

والمسمّى

التوفيق في آداب الطريق

للشيخ العارف بالله

أحمد بن عطاء الله السكندري

نفع الله به آمين

((٦٥٧ - ٧٠٩هـ))

قدّم له

الأستاذ/ زيد بن عبد الرحمن بن يحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي وفّقنا للوقوف أمام أنفاس أهل المعرفة الربانية التي يحدون بها الأمة إلى ما فيه عزّها ورقيّها، ومن ذلك قصيدة الإمام أبي مدين الغوث الذي يُعَدُّ قمّة من قمم الإرشاد ومنارة شامخة من منارات الهداية والإرشاد، السائقة إلى درب الوصول إلى التحقّق بمعرفة الحق سبحانه وتعالى.

ولا أحب أن أطيل في مقدمتي هذه في إيضاح الواضحات كترجمة ناظم الأبيات أو شارحها؛ فهُمْ أشهرُ من نارٍ على علم، فلا يذكر المغرب العربي أو الجزائر إلا ويخيم في العقل والوجدان عطاء الإمام أبي مدين وها هي وسائل الإعلام الجزائرية في استعداداتها لإعلان مدينة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١١م تخصص مساحات واسعة من عامنا هذا للحديث عن مكانة هذا الإمام وكونه من أقوى البصمات التي تميّزُ هذه المدينة؛ بل وروضته ومسجده أيضاً شامّة وعلامة في هذه المدينة المباركة.

وكذلك الإمام ابن عطاء الله السكندري الذي يجلجل اسمه في أروقة العلم ومعاهده، وفي المساجد والمعابد والزوايا والأربطة لدى جميع المتعلقين بجوانب التربية والسلوك خصوصاً، ولدى غيرهم من المشتغلين بالعلوم الإسلامية والفكر والثقافة؛ لِما تميّزت به كتاباته من رصانة وفصاحة ومعانٍ استحقت أنْ يُقال عنها: لو صحّ أن يُقرأ كلامٌ في الصلاة لصحّ أن يُقرأ بحِكَمِ ابن عطاء الله السكندري.

وأما القصيدة وعناية علماء الأمة بها شرحاً وتخميساً فقد تقدّم في كلام أخينا منير بن سالم بازهير في مقدماته على شرح (الروضة الخضراء)؛ نعم أحب أن أضيف أنّ هناك تخميسات لغير الإمام الأكبر ابن عربي المالكي؛ ومن تلك التخميسات ما جمعه صاحب ديوان (الشقائق النعمانية) وهو الشيخ محمد سرور الشيخ السماني المتوفى سنة ١٩٧٩م حيث خصص ثلث الكتاب لأربع تخميسات لشعراء من آل الطيبي وهم: عبدالمحمود – جدّ المؤلف–، وعمّه الجيلي، والشيخ محمد سعيد العباس، والرابع لصاحب الديوان وجامعه الشيخ محمد سرور.

نعم أحبُّ في هذه المقدمة أن أؤكِّدَ على صحة نسبة الشرح المسمّى (التوفيق في آداب الطريق)[١] للإمام ابن عطاء الله السكندري، لا للشيخ العلامة أحمد ابن علّان الصديقي كما نسبه له البعض كالأستاذ محمد عوّاد العوّاد كما في تحقيقه ذلك الشرح المطبوع بدار التقوى بسوريا، والأستاذ عاطف وفْدي كما في تحقيقه المطبوع بمكتبة الرحمة المهداة بمصر.

واعتمادنا في تحقيق نسبة هذا الشرح للإمام ابن عطاء لتطابق الشرحين بنسبة كبيرة جداً لا تدع مجالا لاحتمال تغايرهما؛ ولوجود الدلائل التالية:

١ . كونُ مقدمة الشرح هي بعينها مقدمة كتاب (التنوير في إسقاط التدبير) الذي لا يختلف اثنان على كونه للإمام ابن عطاء، ولا مجال لكون العلامة ابن علّان قد اقتبسه لعدم إشارته إلى ذلك.

(١) وفي بعض النسخ جاء باسم: (عنوان التوفيق في آداب الطريق).

٢. جزمُ المؤلف في ثنايا الشرح في غالب النسخ المخطوطة عند نقله من الحِكم في نسبة القول إليه كقوله: قلتُ في الحِكم... . وأمّا وجود النسخة المنسوبة لابن علّان وفيها قال في الحِكم فهو أسلوبٌ يستخدمه كثير من المتقدمين فيما ينقلونه من كلامهم أنفسهم.

٣. تناغم الصياغة والتعبير والأسلوب والاختصار مع مؤلفات الإمام ابن عطاء الأخرى.

٤. كثرة المخطوطات المُثبِتَةِ في عناوينها نسبة الكتاب للإمام ابن عطاء كنسختي مكتبة الملك عبدالله بن عبدالعزيز الرقمية الأولى برقم(١١٩٢-٣) (تصوف) والثانية برقم (٢٠٠٥-٢) (تصوف)، التي تمت الاستعانة بهما في مقابلة هذا الشرح. وكالنسخة المصرية التي بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم (١٥٢٤/ ب) فنون متنوعة.

٥. جزمُ الكثيرين بهذه النسبة ومن أولئك:

- الأستاذ خالد الأزهري في تحقيقه لهذا الشرح[1] المطبوع بدار الكتب العلمية ٢٠٠٤م.
- تحقيق الدكتور سليمان المدني في تقديمه وإعداده لهذا الشرح المطبوع بدار الحكمة ببيروت ٢٠٠٧م.
- الدكتور عمّار علي حسن في مقاله الذي بعنوان (فرسان العشق الإلهي ابن عطاء السكندري) بتاريخ ١٥/ ٩/ ٢٠٠٩م، المنشور بموقع الجريدة الالكتروني.

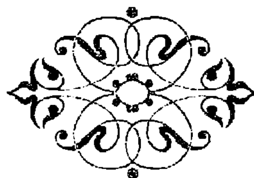
---

(١) وطبع معه كتاب (أنس الوحيد ونزهة المريد).

- الدكتور عبدالفتاح البزم مفتي دمشق في تحقيقه لشرح العلامة الشرنوبي على الحِكم المطبوع بدار ابن كثير الطبعة السابعة ١٩٩٩م.
- الأستاذ أحمد عزّ الدين عبدالله خلف الله في تحقيقه الموسّع للحِكم، والذي أفرد فيه مساحة واسعة لمؤلفات ابن عطاء وحقق ما يصح نسبته له وما لا يصح، الصادر عن المكتبة الأزهرية للتراث بمصر في سنة ١٩٩٦م.

نعم استدل من خالفنا في الرأي بوجود نسبة الشرح على نسخة للعلامة ابن علّان، ولا يقوى هذا الاستدلال أمام الكم الهائل من النسخ التي تصحح النسبة؛ نعم لعلّ هناك شرحا آخر للعلامة ابن علّان ليس هذا المتداول، أو لعلّه رحمه الله كان له اعتناء بتقريره فنسب إليه، لا سيما وأن لديه عددا من شروح القصائد السلوكية. وهذا هو الذي يبرّر نسبة هذا الشرح إلى العلامة ابن علّان من بعض مترجميه كالمحبّي وغيرهم.

وقد يضيفون إلى هذا الاستدلال وجود بيت في الشرح نسبَهُ ابن العماد الحنبلي لشاعر بعد الإمام ابن عطاء ولا يخفى أخْذُ الشعراء عن بعضهم واختلاف نسبة الأبيات إلى قائليها. ولا يبعد أيضاً أن تكون نسبة ابن العماد تلك من باب سبق قلم أو نحو ذلك.



صور من مخطوطات ابن عطاء الله السكندري

المستعان بها في ضبط النص

نموذج من مخطوطة مكتبة الملك عبدالله بن عبدالعزيز الرقمية

النسخة الأولى والتي برقم (١١٩٢ - ٣) (تصوف)

نموذج من مخطوطة مكتبة الملك عبدالله بن عبدالعزيز الرقمية

النسخة الثانية والتي برقم (٢٠٠٥- ٢) (تصوف)

التوفيق في آداب الطريق

قال الشيخ العارف القدوة المحقق، تاج العارفين، ولسان المتكلمين، إمام وقته، ووحيد عصره، تاج الدين أبو الفضل أحمد ابن محمد بن عبدالكريم بن عطاءالله السكندري رضي الله عنه ونفعنا به، آمين:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالخلق والتدبير، الواحد في الحكم والتقدير، الملك الذي ليس له في مُلكه وزير، المالك الذي لا يخرج عن مُلكه صغير ولا كبير، المتقدس في كمال وصفه عن الشبيه والنظير، المنزَّه في كمال ذاته عن التمثيل والتصوير، العليم الذي لا يخفى عليه ما في الضمير، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: ١٤] العَالِم الذي أحاط عِلمه بمَبادِئ الأمور ونهاياتها، السميع الذي لا فضل في سمعه بين ظاهر الأصوات وخفيّاتها[١]، الرازق[٢] وهو المُنعم على الخليقة بإيصال أقواتها، القيوم المتكفل بها في جميع حالاتها، الوهاب وهو[٣] الذي منَّ على النفوس بوجود حياتها، القدير وهو المعيد لها بعد وجود وفاتها، الحسيب وهو المُجازي لها يوم قدومها عليه بحسناتها وسيئاتها، فسبحانه من إله مَنَّ على العباد بالجُودِ قبل الوُجود، وقام بهم[٤] بأرزاقهم على كلتي حالاتهم من إقرار

(١) في نسخة (ب) وخفاياتها.

(٢) في نسخة (ب) الرزّاق.

(٣) في نسخة بدون زيادة لفظة: وهو.

(٤) في نسخة: لهم.

وجحود، ومَدَّ كل موجودٍ بوجودِ عطائِهِ، وحفظ وجود العالم بإمداد بقائه، وظهر بحكمته في أرضه، وقدرته في سمائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبدٍ مفوِّضٍ لقضائه مُسلِّمٍ له في حُكمِهِ وإمضائِهِ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المَفَضَّل على جميع أنبيائه، المخصوص بجزيل فضله وعطائه، الفاتح الخاتم وليس ذلك لسواه، الشافع لكل العباد حين يجمعهم الحق لِفصلِ قضائه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المستمسكين بولائه، وسلم تسليما كثيراً.

اعلم يا أخي جعلك الله من أهل حُبِّه، وأتحفك[١] بوجود قربه، وأذاقك من شراب أهل وُدِّهِ، وأمَّنكَ بدوام وصْلتِهِ من إعراضه وصَدِّهِ، ووصَلك بعباده الذين خَصَّهم بمراسلاته، وجَبَرَ كسرَ قلوبهم لما علموا أنه لا تدركه الأبصار لنور تجلياته، وفتح لهم رياض القرب وهبَّ منها على قلوبهم واردات نفحاته، أشهدهُم سابقَ تدبيرِهِ فيهم فسلَّمُوا إليه القياد وكشَفَ عن خفي لطفه في منعه فتركوا المنازعة والعناد، فهم مستسلمون إليه، ومتوكلون عليه.

أما بعد، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((**يُحشَر المَرءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فليَنظُر أحُدُكم مَن يُخَالِل**[٢]))[٣]. فإذا علمت أيها الأخ الشقيق، فلا تخالل إلا من ينهضك حالهُ، ويَدُلُّك على الله مقالهُ[٤]، وذلك هو الفقير المتجرِّد عن السِّوى، المقبل على المولى، فليست اللذة إلا مخاللته، ولا السعادة إلا

(١) في نسخة: وألحقك.

(٢) رواه أحمد برقم (٨٢٤٩)، والترمذي برقم (٢٥٥٣)، وأبو داود برقم (٤٨٣٣).

(٣) رواه أحمد برقم (٨٢٤٩)، والترمذي برقم (٢٥٥٣)، وأبو داود برقم (٤٨٣٣).

(٤) جاء في (الحِكم) (٤٣): لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلّك على الله مقاله.

خدمته[١] ومصاحبته، فلذلك قال الشيخ العارف المتمكن أبو مدين الغوث[٢] رضي الله تعالى عنه.

١ - مَا لَذَّةُ العَيْشِ إلا صُحْبَةُ الفُقَرَا   هُمُ السَّلاطِيْنُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَرَا[٣]

لذة الطريق في صحبة أهل التحقيق

أي ما لذة عَيشِ السالك[٤] في طريق[٥] مولاه إلا صحبة الفقراء. والفقراء جمع فقير، والفقير هو المتجرد عن العلائق[٦]، المعرض عن العوائق، لم يبق له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالى، وقد أعرض عن كل شيء سواه، وتحقق بحقيقة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فمثل هذا مصاحبته تذيقك لذة الطريق، وتريق[٧] في جميع فؤادك من شراب القوم أهنى رحيق، ويعرّفك الطريق، ويقطع لك العقاب[٨] ويزيل عن قلبك التعويق، وينهضك بهمَّتِهِ[٩] ويرفعك إلى أعلى الدرجات، ومن كان كذلك فهو السلطان على الحقيقة، والسيد على[١٠] أهل الطريقة، والأمير على[١١] أهل البصيرة.

---

(١) جاء في نسخة زيادة: والصاحب كالرقعة في الثوب فلينظر بما يرقع ثوبه.

(٢) زيادة من النسخة المطبوعة.

(٣) وينسب لأبي مدين كما في ديوانه قوله:

طال اشتياقي ولا خلّ يؤانسني   ولا الزمانُ بما نهوى يوافيني

قالوا جُنِنت بمن تهوى فقُلتُ لهُم   ما لذّةُ العيشِ إلّا للمجانينِ

ولعل من صحبة الفقراء صحبة أنفاسهم وكتاباتهم ولذلك يقول القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني كما تحسين القبيح وتقبيح الحسن للثعالبي:

ما تطعمت لذة العيش حتى   صرت في وحدتي لكتبي جليسا

(٤) في نسخة: ما لذة العيش للسالك...

(٥) في بعض النسخ المطبوعة: في طريقه إلى مولاه.

(٦) في بعض النسخ المطبوعة: الخلائق. خلافا لجميع النسخ الخطّية التي وقفنا عليها.

(٧) في بعض النسخ المطبوعة: تهريق.

(٨) في نسخة: ويقطع بك العقبات.

(٩) في نسخة: بهمّتك.

(١٠) في بعض النسخ المطبوعة: عند.

(١١) في بعض النسخ المطبوعة: عند.

فلا تخالف أيها السالك طريقه، واجتهد أيها السالك المُجِدُّ في تحصيل هذا الرفيق، واصحبه وتأدّب في مجالسه[١]، يزول[٢] عنك ببركة صحبته كل تعويق كما قال رضي الله تعالى عنه:

٢- فَاصْحَبْهُمُ وَتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْمَا قَدَّمُوكَ وَرَا

أدب الصحبة

أي اصحب الفقراء، وتأدّب معهم في مجالستهم فإن الصحبة شَبَحٌ[٣]، والأدبُ روحُها، فإذا اجتمع لك بين الشبح والروح حُزتَ فائدة صحبته[٤]، وإلا كانت صحبتك ميتة فأي فائدة ترجوها من الميت.

ومن أهم آداب[٥] الصحبة أن تخلِّف حظوظك وراءك ولا تكن همّتك مصروفة إلا لامتثال أوامرهم فعند ذلك يُشْكَرُ مسعاك، فإذا تخلّقت بذلك فبادر واستغنم الحضور وأخلص في ذلك ترفع درجتك وتعلو همتك القصور[٦]، كما قال رضي الله عنه:

٣- وَاسْتَغْنِمِ الوَقْتَ وَاحْضرْ دَائِماً مَعَهُمْ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضَا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرَا

الرضا في الحضور

أي استغنم وقت صحبة الفقراء واحضر دائما معهم بقلبك وقالبك تسري إليك زوائدهم[٧]، وتغمرك فوائدهم[٨]، وينصح[٩] ظاهرك بالتأدّب بآدابهم،

---

(١) في بعض النسخ المطبوعة: مجالسته.
(٢) في بعض النسخ المطبوعة: كيما يزيل عنك.
(٣) وهو ما يدرك بالحواس والمقصود منه الصورة والشكل والقالب.
(٤) في بعض النسخ المطبوعة: الصحبة.
(٥) في نسخة: أدب.
(٦) في بعض النسخ المطبوعة: عن الحور والقصور.
(٧) في بعض النسخ المطبوعة: فوائدهم.
(٨) في بعض النسخ المطبوعة: فرائدهم.
(٩) في بعض النسخ الخطية والمطبوعة: وينصلح.

ويشرق باطنك بالتحلّي بأنوارهم، فإنّ من جالس جانس، فإن جلست مع المحزون حزنت، وإن جلست مع المسرور سُرِرت، وإن جلست مع الغافلين سَرَتْ إليك الغفلة، وإن جلست مع الذاكرين انتبهت من غفلتك، وسرت إليك اليقظة، فإنهم القوم لا يشقى جليسهم[1]، فكيف يشقى خادمهم ومحبهم وأنيسهم وما أحسن ما قيل:

لي سادة من عزّهم   أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي   في حبهم عِزٌّ وجاه

واعلم أن هذا الرضا، وهذا المقام يخص من حضر معهم بالتأدب، وخرج عن نفسه، وتحلّى بالذلة والانكسار، فاخرج عنك إذا حضرتَ بين أيديهم، وانطرح وانكسِر إذا حللتَ بناديهم، فعند ذلك تذوق لذة الحضور، واستعن على ذلك بملازمة الصَّمت، تُشرِقُ لك[2] أنوار الفرح، ويغمرك السرور كما قال رضي الله تعالى عنه:

٤ - **وَلازِمِ الصَّمْتَ إلا إنْ سُئِلْتَ فَقُلْ   لا عِلْمَ عِنْدِيْ وَكُنْ بالجَهْلِ مُسْتَتِرا**

التستر بالجهل

الصَّمت عند أهل الطريقة[3] من لازَمهُ ارتفع بنيانه، وتمَّ غِراسه، وهو نوعان: صمت باللسان وصمت بالجَنان وكلاهما لا بدَّ منه في الطريق فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة، ومن صمت لسانه ونطق قلبه خفّ وزنه[4]، ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلّى له سرّه، وكلمه ربه، وهذا غاية

---

(١) هو جزء من حديث رواه البخاري ولفظه: ((إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيّارة فضلاء يبتغون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر الله قعدوا معهم، وحفّ بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء...)).

(٢) في بعض النسخ المطبوعة: عليك.

(٣) في بعض النسخ المطبوعة: الصمت أصل الطريق وأساسه، ومن لازمه... إلخ.

(٤) في بعض النسخ المطبوعة: وزره.

الصمت وكلام الشيخ قابل لذلك فالزم الصمت أيها السالك إلا إن سُئِلت؛ فإن سُئِلتَ فارجع إلى أصلِك ووصلك[١] وقل لا علم عندي واستتر بالجهل تُشرق لك أنوار العلم اللدني، فإنك مهما اعترفت بجهلك ورجعت إلى أصلِك لاحت لك معرفة نفسك، فإذا عرفتها عرفت ربك، كما روي في الحديث ((مَن عَرفَ نفسَهُ عَرفَ رَبَّهُ))[٢]، وكل ذلك من فوائد الصمت ولزوم آدابه، فاصمت وتأدب ولازم الباب تكن من أحبابه، وما أحسن ما قيل:

لا أبرح الباب حتى تصلحوا عوجي
وتقبلوني على عيبي ونقصاني
فإن رضيتم فيا عزِّي ويا شرفي
وإن أبيتم فمن أرجو لعصياني

فانهض أيها الأخ - إلى باب مولاك بهمَّة علية، وتحقق بعبوديتك[٣] تشرق عليك أنواره السنية، كما أشار إلى ذلك الشيخ رضي الله تعالى عنه بقوله:

٥- وَلا تَرَ العَيْبَ إلا فِيكَ مُعْتَقِداً عَيْباً بَدَا بَيِّناً لَكِنَّهُ اسْتَتَرَا

التحقق بأوصاف العبودية

أي تحقق بأوصافك من فقرك وضعفك وعجزك وذلتك[٤]، فإذا تحققت بأوصافك وشَهِدتَ لنفسك عيوباً لكنها مستترة، فعند ذلك لا تخفى بظهور أوصاف مولاك فيك[٥]، كما قيل (سُبحانَ مَنْ سَترَ سِرَّ الخصوصية في ظهور

---

(١) في بعض النسخ المطبوعة: ووطنك.

(٢) قال في (كشف الخفا) ٢/ ٢٦٢ في حديث: من عرف نفسه فقد عرف ربه: قال النووي: ليس بثابت. وقال أبو المظفر بن السمعاني في (القواطع) إنه لا يعرف مرفوعاً وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله. وللحافظ السيوطي فيه تأليف لطيف سماه (القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه)، وقال النجم: قلت: وقع في (أدب الدين والدنيا) للماوردي عن عائشة سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أعرف الناس بربه؟ قال أعرفهم بنفسه.

(٣) في بعض النسخ المطبوعة: بأوصاف عبوديتك.

(٤) في بعض النسخ المطبوعة: وذُلّك.

(٥) في بعض النسخ المطبوعة: فعند ذلك تحظى بظهور أوصاف مولاك فيك.

البشرية وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العُبُودية[١]، وافهم من هنا سر معنى قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[سورة الإسراء:١] ولم يَقل برسوله ولا بنبيِّهِ، أشارة إلى ذلك المعنى الرفيع الذي لا يُنال إلا من العبودية ولذلك قيل:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنـه أشرف أسـمائي[٢]

فانكسِر - أيها الأخ - وانطرح بالطريق ولا تَرَ لك حالا، ولا مقالا يزل عنك كل تعويق، واستغفر من كل ما يخطر بقلبك في عبوديتك وقُمْ على قدمِ الاعتراف[٣] وأنصِفْ من نفسك تبلغ [أعلى] [٤] درجات المنازل وتفنى بشريتك كما قال رضي الله تعالى عنه:

٦- **وَحُطَّ رَأْسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلا سَبَبٍ وَقُمْ عَلَى قَدَمِ الإِنْصَافِ مُعْتَذِرَا**

دوام شهود تقصيرك

أي تواضع وانكسر، وحُطَّ أشرف ما عندك، وهو رأسك في أخفض ما يكون وهي الأرض لتحوز مقام القرب، كما ورد في الحديث ((**أَقرَبُ ما يَكُونُ العَبدُ إلى الله تعَالى وَهو سَاجِد**))[٥]، لأن قُربَ العبد بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته. واشهَدْ نفسك دائماً مُذنباً، ولو لم يظهر عليك سبب

---

(١) وهي الحكمة (١١٨).

(٢) البيت ذكر في الرسالة القشيرية، والوافي بالوفيات، ووفيات الأعيان وغيرها، غير منسوب وفي بعضها مسبوقا بهذا البيت:

يـاقوم قلبـي عنـد زهرائـي يعرفـه السـامع والرائـي

قال اليوسي في (زهر الأكم): وقد تمثل به العلماء في قصة تخيير النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا، واختياره أن يكون عبدا وهو أشرف الأمرين وأجل فإنّ الإضافة إلى الشرف تفيد شرفا. وأي شرف ومجد وعظمة وجلال وراء عظمة مالك الملك الحق تعالى وأي منزلة أعظم من الانتساب إليه. ومما يشبهه:

وهان علي اللوم في جنب حبها وقـول الأعـادي إنـه لخليـع

أصمٌّ إذا نوديت باسمي وإنني إذا قيل لي يا عبدها يا سميع

(٣) في بعض النسخ المطبوعة: الإنصاف، وفي أخرى الإخلاص.

(٤) زيادة من بعض النسخ المطبوعة.

(٥) رواه مسلم، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم (٧٤٤) ٣/ ٢٩. بلفظ ((**أقرب ما يكون العبد من ربه...**)).

الذنب، فإن العبد لا يخلو من تقصير، وقِف على قدَمِ الإنصاف [معتذرا] [١] من ذنوبك خجلا من سيئاتك وعيوبك، فإنّ من عامل المخلوق هذه المعاملة أحبَّهُ ولم يشهد له ذنباً وكانت مساويه عنده محاسن، فكيف إذا عامل بهذه المعاملة صاحبه الحقيقي الذي إذا تحقّقه ليس له صاحب سواه، كما ورد في الحديث «**اللهم أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفر، والخلِيفة فِي الأهلْ والمَال والولَد**»[٢].

فتأهب - أيها الأخ - لهذه المعاملة مع إخوانك الفقراء، لتصير لك معراجاً تتوصّل بها إلى معاملة ربِّ السماء، وتكون مقبولاً عند الخلق والخالق وتصفو لك المعاملة، وتشرق عليك[٣] أنوار الحقائق. [كما][٤] قال رضي الله تعالى عنه:

٧- **وَإِنْ بَدَا مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَذِرْ وَأَقِمْ ... وَجْهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ[٥] جَرَى**

٨- **وَقُلْ عُبَيْدُكُمُ أَوْلَى بِصَفْحِكُمُ ... فَسَامِحُوا وَخُذُوا بِالرِّفْقِ يَا فُقَرَا**

٩- **هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلَى وَهْوَ شِيمَتُهُمْ ... فَلا تَخَفْ دَرَكاً مِنْهُمْ وَلا ضَرَرَا**

طلب الصفح

أي لِيكن شأنك دائماً التواضع والانكسار وطلب المعذرة والاستغفار، سواء وقع منك ذنب أو لم يقع، وإن بدا منك عيبٌ أو ذنب فاعترف واستغفر، فإن «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[٦]، وليس الشأن أن لا تذنب، إنما الشأن أن لا تصِرَّ على الذنب كما ورد «أَنِينُ المُذنِبينَ خَيرٌ عند الله مِن زَجلُ

(١) زيادة من بعض النسخ المطبوعة.
(٢) رواه مسلم باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره برقم (٢٣٩٢) ٧/ ٥٦.
(٣) في بعض النسخ: لك.
(٤) زيادة من بعض النسخ.
(٥) في بعض النسخ: منه.
(٦) رواه ابن ماجه في سننه ٢/ ١٤٢٠ برقم (٤٢٥٢). والطبراني كلاهما من رواية أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه ولم يسمع منه، ورواة الطبراني رواة الصحيح، ورواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس. ينظر الترغيب ٤/ ٤٨.

المُسَبِّحِين))[١] عُجَباً وافتخَارا، ولذلك قلتُ في الحِكَمْ (ربما فُتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول وقُضى عليك بالذنب وكان سبباً للوصول)[٢]. (رُبَّ معصِيةٍ أورثتْ ذلا وانكِسَاراً خير من طاعةٍ أورثت عِزا واستكبَاراً)[٣]. ومع اعترافك واستغفارك أقِم وجه اعتذارك عما جرى منك فيكون ذلك مُمْحِياً للذنب وأدخل في القبول. وذِل وتواضَع وانكسِر وقلْ: عُبيدكم أولى بصفحِكُم لأن العبد ليس له إلا باب مولاه وما أحسن ما قيل:

ألقيتُ في بابكم عناني ولم أبالِ بما عَناني
فزال قبضي وزاد[٤] بسطي وانقلب الخوف بالأماني

فسامحوا عُبَيدَكم يا فقرا، وخذوا بالرفق وعاملوني به فإني عبد فقير لا يصلحني إلا المعاملة بالرفق والفضل، ولا اعتماد لي[٥] إلا على الفضل لا بحولي ولا بقوتي؛ مذهبي العجز والسلام[٦].

ثم قال رضي الله تعالى عنه: إنهم أولى بهذا الشيء[٧]، وهو شِيمتهم ولم يزالوا متفضلين، وهذه معاملتهم مع أصحابهم، وهي سجيتهم[١] وكيف لا تكون

---

(١) أورده السيوطي في (الجامع) وحسنه العزيزي في (السراج المنير) ومال الكثيرون إلى وضعه ومنهم الحافظ أحمد بن الصديق وجمع جزءا سمّاه (الحنين بوضع حديث الأنين) وجنح إلى كونه من كلام الإمام جعفر الصادق وأنه يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١١٤]، وأكّد على صحة المدح من كلام النبوة للتأوّه وعدّه من الذكر. للتوسع ينظر (الحنين) بتحقيق بدر العمراني المطبوع بدار الكتب العلمية. وبمعناه في (شعب الإيمان) للبيهقي رقم (٧٢٥١) أنه مما أوصى الله به داود قال: أنين المذنبين أحب إليّ من صراخ الصديقين.

(٢) وهي الحكمة (٩٥).

(٣) وهي الحكمة (٩٦).

(٤) في بعض النسخ المخطوطة: وذاك. وفي مطبوعة: وزار.

(٥) في بعض النسخ المطبوعة: ولا اعتمادي.

(٦) في بعض النسخ المطبوعة: والتسليم.

(٧) في بعض النسخ المطبوعة: الفضل.

تكون سجيتهم وهم متخلقون بأخلاق مولاهم، كما ورد ((تخَلقوا بأخْلاقِ الله))[٢]. فلا تخف منهم ضررا أيها السالك المصاحب لهم وتمسَّك بأذيَالهم[٣]؛ ((فإنَّهُمُ القومُ لا يَشقَى جَلِيسَهُم))[٤]. فإذا عرفتَ ذلك أيها السالك فتخلّق بأخلاقهم الكريمة وجُد بالتفتي عن الأخوان، وغض الطرف عن عثرتهم تكن آخذاً من أوصافهم أحسن هبات[٥]. قال رضي الله تعالى عنه:

١٠- وَبِالتَّفَتِّي[٦] عَلَى الإِخْوَانِ جُدْ أَبَدَاً حِسّاً وَمَعْنًى وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا

بذل الأموال وغض الطرف عن العثرات

أي: وتكرَّم على إخوانك، وجُد عليهم أبدا، أما في الحِسِّ فببَذل الأموال، وأما في المَعنى فبصرف همَّة الأحوال، ولا تبخل عليهم بشيء يمكنك إيصاله إليهم، فإنّ السماحة لبُّ الطريق، ومن تخلّق بها فقد زال عن قلبه كل تعويق.

قال الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه: " إخواني، ما وصَلتُ إلى الله تعالى بقيام ليل، ولا صيام نهار، ولا دراسة علم، ولكن وصلت إلى الله بالكرم والتواضع وسلامة الصَّدر. فدَلَّ[٧] كلام الشيخ رضي الله تعالى عنه: أن الكرم هو الأساس، وأن التواضع يتم للسالك به الغراس، فإذا أتمَّ له هذان سلم

---

(١) في بعض النسخ المطبوعة: ومن سجيتهم.

(٢) أورده السيوطي في (تأيد الحقيقة العلية) (١/ ٨٩) دون عزو.

(٣) في بعض النسخ المطبوعة: والمتمسك بأذيالهم.

(٤) تقدمت الإشارة إليه.

(٥) في بعض النسخ المخطوطة: هيئة.

(٦) من الفتوّة وهي مصطلح سلوكي يشير به القوم إلى رتبة عليّة من التحقق بمكارم الأخلاق وأطنبوا في بيانها وأفردها البعض بالتصنيف كالسلمي في رسالته الفتوّة وكابن طولون في رسالته (كمال المروّة في جمال الفتوّة) المطبوع بدار الرزي ضمن رسائل من التراث الصوفي ٢٠٠٢م.
وفي بعض النسخ: وبالتغنّي. من الإغناء.

(٧) في بعض النسخ المخطوطة: فعلى كلام ....

صدره من العلائق، وزال عن طريقه كل عائق. ولذلك ورد في الحديث: ((**إنَّ في الجنة لغُرَفاً، يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطنُها من ظاهِرِها، أعدَّها الله تعالى لِمَنْ ألانَ الكَلام، وأطعَمَ الطعام وتابَعَ الصيام وصَلى بالليل والناسُ نِيام**))(١). فتأمل هذا الحديث _ يا أخي _ حيث بدأ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بإلانة الكلام وهو إشارة إلى التواضع، ثم ثنّى بإطعام الطعام، وهو إشارة إلى الكرم، ثم أتى بعد ذلك بالصَّلاة والصِّيام كما أشار إليه الشيخ عبد القادر.

فانهض أخي إلى هذه المآثر، وبادر واجمع معها حُسْنَ مكارم الأخلاق، وغُضَّ الطرف عن مساوئ الإخوان إن وقفتَ(٢) منهم على عثرة، ولا تشهد إلا محاسنهم، كما قال رضي الله تعالى عنه في حكمه الفتوحية:" رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساويهم ذلك شيء من كمال التوحيد"(٣). كما قيل:

إذا ما رأيتَ الله في الكل فاعلاً ... رأيتَ جميع الكائنات ملاحا

وإن ما ترى إلا مظاهر صنعه ... حجبتَ فصيّرت الحسان قباحا(٤)

---

(١) مسند الإمام أحمد، حديث أبي مالك الأشعري ٤٦/ ٣٨١ برقم (٢١٨٣١). وجامع الأحاديث ٩/ ١٠٦.

(٢) في بعض النسخ المطبوعة: أي وإن وقعت منهم عثرة.

(٣) في بعض النسخ المطبوعة: الفتوّة رؤية محاسن العبيد .... .

(٤) يقول الإمام الحداد: (الرؤية رؤية قلب بعين الاعتبار والاستبصار. وقد تكون بعين المشاهدة الذوقية من بصر البصيرة السرية. وذلك لا يفتقد إلى تقدير كونٍ ولا شكلٍ ولا لونٍ ولا شخصية ولا مقابلة ولا غير ذلك من ألوان الأجسام ومدركاتها المحسوسة. وعلى مثل ذلك يرى المؤمنون ربهم في الجنة. وهي وإن كانت بالأبصار الظاهرة فالأبصار هناك في مثل البصائر والأسرار ها هنا... .

وعن شرح البيتين يقول: إذا ما رأيت الله في الكل فاعلا إلى آخرهما، فهي رؤية آثار صفات الصانع في الصنعة فترى الأفعال من حيث فعل الفاعل ووجوه حكمته وعجائب إتقانه لها وما خلقها له وأراده منها وبها ولها وكل ذلك حسن جميل لا قُبْحَ فيه ولا نقص. ومن عكسَ هذه الرؤية بحكم حظه وسوء اختياره فقد يرى القبيح في الكل أو في البعض. وليس من هذا الحال الاستحسان الشرعي والاستقباح الشرعي؛ فإن لذلك معاني أخرى جاءت من وجه آخر وهو الأمر الإلهي. وأما تنزيه الحق وتقديسه وتعاليه عن صفات المخلوقين فهو الأمر المجمع عليه شريعة وحقيقة. وكذلك هو في الدنيا والآخرة إلا أن لأهل الطريق إطلاقات وتوسيعات... ينظر كتاب (النفائس العلوية) صـ (١٣٦-١٣٧).

فإذا تخلقت ـ أيها الأخ ـ بهذه الخصال الشريفة، فقد تأهلتَ للإقبال على الشيخ: فانهض إلى عتبة بابه، وراقبه بهمَّة منيفة، كما أشار إلى ذلك الشيخ رضي الله تعالى عنه بقوله:

١١ـ وَرَاقِبِ الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَى يَرَى عَلَيْكَ مِنِ اسْتِحْسَانِهِ أَثَرَا

مراقبة الشيخ في أحواله

أي: إذا تخلقتَ بما تقدم من الآداب، ووصلت بافتقارك وانكسارك إلى الشيخ، وتمسَّكت بأثر[1] تلك الأعتاب، فراقب أحواله، واجتهد في حصول مراضيه، وانكسِر واخضع له في كل حين؛ فإنه الترياق والشفاء، وإن قلوب المشايخ ترياق الطريق، ومن سَعِدَ بذلك تمَّ له المطلوب وتخلص من كل تعويق.

واجتهد ـ أيها الأخ ـ في مشاهدة هذا المعنى، فعسى يرى عليك من استحسانه لحالك أثراً؛ قال بعضهم: "مِنْ أشد الحرمان: أن تجتمع مع أولياء الله تعالى ولا تُرزق القبول منهم، وما ذلك إلا لسوء الأدب منك، وإلا فلا بُخل من جانبهم ولا نقص من جهتهم".

كما قلتُ في الحِكَمِ: "ما الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن تورث حسن الأدب".

زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد رضي الله تعالى عنه وقال: هل هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيد؟ فأشير إلى شيخ كبير في السِّن كان حاضراً هناك، فقال له: هل سمعت شيئا من كلامه؟ قال: نعم، قال: "من زارني[2] لا تحرقه النار"، فاستغرب السلطان ذلك الكلام! فقال: كيف يقول أبو يزيد ذلك وأبو جهل

---

(١) في بعض النسخ المطبوعة: بثرى.

(٢) في بعض النسخ المطبوعة: رآني.

رأى النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وهو تحرقه النار؟ فقال ذلك الشيخ للسلطان: أبو جهل لم يرَ النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، إنما رأى يتيم أبي طالب، ولو رآه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لم تحرقه النار. ففهِمَ السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه.

أي: إنه لم يره بالتعظيم والإكرام واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار، ولكنه رآه باحتقار واعتقاد أنه يتيم أبي طالب، فلم تنفعه تلك الرؤية.

وأنت يا أخي، لو اجتمعت بقُطبِ الوقت ولم تتأدب، لم تنفعك تلك الرؤية، بل كانت مضرَّتها عليك أكثر من منفعتها.

إذا فهمت ذلك أيها السالك فتأدّب بين يدي الشيخ، واجتهد أن تسلك أحسن المسالك وخذ ما عرفت بجد واجتهاد، وانهض في خدمته، واخلص في ذلك لتسود مع من ساد، كما قال:

١٢- وَقَدِّمِ الجِدَّ وَانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ ... عَسَاهُ يَرْضَى وَحَاذِرْ أَنْ تُرى ضَجِرَا

١٣- فَفِيْ رِضَاهُ رِضَا البَارِيْ وَطَاعَتِهِ ... يَرْضَى عَلَيْكَ فَكُنْ مِنْ تَرْكِهِ حَذِرَا

الإخلاص في خدمة الشيخ

أي: وانهض في خدمة الشيخ بالجد فعساك تحوز رضاه فتسُود مع من ساد، واحذر أن تضجر، ففي الضَّجر الفساد، ولازم أعتاب بابه في الصباح والمساء لتحوز منه الوداد. وما أحسن ما قيل:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر
وللغدو[1] على الطاعات بالبكر[2]

---

(١) وفي نسخة: وللنذور.

(٢) في بعض النسخ المطبوعة: زيادة بيت هنا وهو: إني وجدتُ من الأيام تجربة ** للصبر عاقبة محمودة الأثر نسبت الأبيات لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي في ديوانه، ونسبت لأبي حية النميري كما في (ربيع الأبرار) للزمخشري، وحماسة القرشي، والتذكرة الحمدونية، ولمحمد بن بشير كما في (الفرج بعد الشدة).

وقـــل مـــن جــــدَّ في أمـــــر يؤمّلـــــه
مـــا اســتــصحب الـــصبر إلا فـــاز بـــالظفر

فإن ظفرتَ -أيها السالك- برضاه؛ رضي الله تعالى عنك ونلتَ فوق ما تمنيت. فاستقم في رضا شيخك وطاعته تظفر بطاعة مولاك ورضاه، وتفوز بجزيل كرامته. فعُضَّ أيها الأخ بالنواجذ على خِدمة الشيخ إن ظفرتَ بالوصول إليه. واعلم أن السعادة قد شملتك من جميع جهاتك، إذا عرفك الله تعالى به، وأطلعك تعالى عليه؛ فإنّ الظفر به لا سيما في هذه الأيام أعز من الكبريت الأحمر واعلم أن طريق القوم دارسة وحال من يدّعيها كما ترى.. لكن إذا ساعدتك العناية ظفرتَ وشمَمْتَ من نفحة طيبه ما يفوق المِسك الأذفر، ولذلك قال رضي الله تعالى عنه وعنا به، آمين:

١٤- وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَوْمِ دَارِسَةٌ وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيهَا اليَوْمَ كَيْفَ تَرَى
١٥- مَتَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لِي بِرُؤْيَتِهِمْ أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّيْ عَنْهُمُ خَبَرَا
١٦- مَنْ لِي وَأَنَّى لِمِثْلِي أَنْ يُزَاحِمَهُمْ عَلَى مَوَارِدَ لَمْ آلَفْ بِهَا كَدَرَا
١٧- أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيهِمْ وُأُوْثِرُهُمْ بِمُهْجَتِي وَخُصُوْصاً مِنْهُمُ نَفَرَا

تشوّق السالكين إلى طريق أهل اليقين

شرع الشيخ رضي الله عنه يشوّق السالك إلى طريق أهله، ويخبرهم أن طريقهم دارسة، وحال من يدّعيها اليوم كما ترى في الفترة حتى كادت الهمم أن تكون من الطلب آيسة، وهكذا شأن طريق القوم لعزّتها، كأنها في [كل][1] عصر مفقودة، ولا يظفر بها إلا الفرد بعد الفرد، وهذه سنة معهودة، وذلك أن الجوهر

---

(١) زيادة من بعض النسخ المطبوعة.

النفيس لا يزال عزيز الوجود، يكاد لعزته يُحكَم بأنه ليس موجود، فالطريق وأهلها[١] مخفية في العالم خفاء ليلة القدر في شهر رمضان، وخفاء ساعة الجمعة في يومها حتى يجتهد الطالب في طلبه بقدر الإمكان؛ فإن من جَدَّ وَجَدَ، ومن قرع الباب ولَجَّ وَلَجَ.

قلتُ: بعد أن ذكر لا بد من الشيخ في الطريق على سبيل السؤال والجواب، كيف تأمرنا بذلك وقد قيل إن وجود الشيخ كالكبريت الأحمر وكالعنقاء، مَن ذا الذي بوجودها يظفر، كيف تأمرني بتحصيلِ مَن هذا شأنُهُ، فقال: لو صدقتَ في الطلب وكنتَ في طلبه كالطفل والظمآن لا يقرُّ لهم قرار ولا تسكن لوعتهم حتى يظفروا بمقصودهم، فأشار الشيخ رضي الله عنه إلى أن الشيخ موجود، وكيف لا يكون موجودا وعمارة العالم إنما هي بأمثاله؛ فإن العالَمَ شخصٌ والأولياء روحه، فما دام العالَمَ موجوداً لا بدَّ من وجودهم، لكن لشدَّة خفائهم وعدم ظهورهم حُكِم بفقدانهم[٢].

فاجتهد أيها الأخ واصدق في الطلب تجدِ المطلوب، واستعِن على ذلك الطلب بمَدَدِ علام الغيوب؛ فإنّ الظفر لا يحصل إلا بمجَّرد فضله. وإذا أوصلك إلى الشيخ فقد أوصلك إليه كما قلتُ في الحِكَم: "سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه "[٣]. ثم إن الشيخ رضي الله عنه، لمّا ذكر عزة الطريق، وفقدان أهلها شرع يتأسّف على الاجتماع بهم

---

(١) في بعض النسخ المطبوعة: والطريق أهلها.

(٢) وفي ذلك يقول الإمام عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه في (الرشفات):

يقول قوم عن هداهم ضلّوا ... قد عدموا في عصرنا وقلّوا

فقل لهم كلا؛ ولكن جلّوا ... عن أن تراهم أعين الجهّال

(٣) وهي الحكمة رقم (١٥٦).

ويتمناه، ويستبعد من نفسه حصول ذلك، والتشرّف بلقائه تواضعا منه وانكساراً وهضماً لنفسه واحتقاراً. ولذا قال بعد ذلك: (من لي وأنّى لمثلي أن يزاحمهم...) الخ. وهذا شأن العارف لنفسه بنفسه، الممتلىء من معرفة ربه، المتحلي بواردات قدسه؛ لأنه لا يرى لنفسه حالا ولا مقالا، بل يرى نفسه أقل من كل شيء وهذا هو النظر التام، كما قيل:

إذا زاد علم المرء زاد تواضعا ... وإن زاد جهل المرء زاد ترفعا

وفي الغصن من حمل الثمار مناله ... وإنْ يَعْرَ من حمل الثمار تمنَّعا

فانظر إلى الشيخ أبي مدين ورفعته في الطريق مع أنه وصل من تربيته اثنا عشر ألف مريد، وانظر إلى هذا التنزّل منه والتدلي بأغصان شجرة معرفته إلى أرض الخضوع والانكسار حتى أنه لم يرَ نفسه أهلا للاجتماع بأهل هذه الطريقة، ولا يزيده هذا الانخفاض إلا الارتفاع؛ لأنّ الشجرة لا يزيدها انخفاضها في عروقها إلا ارتفاعا في رأسها. فتواضع في الطريق، وخذ هذا الأصل العظيم من هذا العارف المتمكن يزل عنك كل تعويق. ثم قال رضي الله تعالى عنه بعد ذلك: (أحبهم إلى آخره)، أي: وإن لم أكن أنا منهم فإني أحبهم، ومن أحب قوما فهو منهم؛ كما ورد في الحديث ((المَرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ))[1]. وكما قيل:

أحب الصالحين ولستُ منهم ... لعلي أن أنالَ بهم شفاعة

وأكره من بضاعته المعاصي ... وإن كنّا سواء في البضاعة[2]

---

(١) رواه البخاري، باب علامة حب الله عز وجل، ١٩/ ١٤٥، برقم (٥٧٠٢)، ومسلم، باب المرء مع من أحب، ١٣/ ٩٥، برقم (٤٧٧٩). ورواه الترمذي عن أنس، باب ما جاء أن المرء مع من أحب. وزاد: ((وله ما اكتسب)).

(٢) البيتان للإمام الشافعي في ديوانه، ونُسبا إلى ابن الفويرة وكذا لأبي المكارم التلعفري كما في (النجوم الزاهرة). وزاد في الكشكول بيتا ثالثا وهو:

واغبط من يضيع العمر لهواً ... وإن كنتُ امْرءاً جمّ الاضاعة

لعله: وأبغض من يضيع العمر ... إلخ.

وهذا أيضا منه رضي الله تعالى عنه من تمام التنزّل السابق وتكميلا وتتميماً لهذا التواضع الذي لم يلحق جواد شرفه في ميدانه لاحق، نفعنا الله ببركاته ووفقنا لشيمته في معاملته لأن هذه خصال القوم وصفاتهم، ولذلك ارتفعت رتبهم، وجزلت عطيتهم؛ كما وصفهم رضي الله تعالى عنه بقوله:

من خصال الكرام

٢٣- قَوْمٌ كِرَامُ السَّجَايَا حَيْثُمَا جَلَسُوا ... يَبْقَى الزَّمَانُ[1] عَلَى آثَارِهِمْ عَطِرَا

٢٤- يُهْدِي التَّصَوُّفُ مِنْ أَخْلاقِهِمْ طَرَفاً[2] ... حُسْنُ التَّآلُفِ مِنْهُمْ رَاقَنِي نَظَرَا

٢٥- هُمْ أَهْلُ وَدِّيْ وَأَحْبَابِي الَّذِيْنَ هُمُو ... مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيُوْلَ العِزِّ مُفْتَخِرَا

٢٦- لا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعاً ... وَذَنْبُنَا فِيْهِ مَغْفُوراً وَمُغْتَفَرَا

٢٧- ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا ... مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَنْ وَافَى وَمَنْ نَذَرَا

أي: قوم سجاياهم كريمة وهمتهم عظيمة، حيثما جلسوا تبقى آثار نفحات عطرهم في المكان ظاهرة، وأينما توجهوا سطع شمس معارفهم فتشرق القلوب، وتصلح بهم الدنيا والآخرة، يهدي التصوف للسالك المشتاق من أخلاقهم طرقاً مجيدة تدل على الطريق ويسير في سلوكه سيرة حميدة، فلذلك جمعوا أحسن تأليف[3] حتى راق كل ناظر، وحوى كل معنى لطيف[4]، حتى اكتحلت بكحل إثمدهم أنوار البصائر. ولذلك قال الشيخ رضي الله تعالى عنه بعد ذلك (هم أهل ودّي وأحبابي) إلى آخره.

---

(١) وفي نسخة: المكان.

(٢) وفي نسخة: طرقاً..

(٣) في بعض النسخ المطبوعة: تآلف.

(٤) في بعض النسخ المطبوعة: وجَدُّوا في أكمل معنى لطيف.

فإنّ الشخص لا يحب إلا من جانسه، ولا يَوَدُّ إلا من كان بينه وبينه مؤانسة. وفي هذا الكلام إشارة إلى أنه رضي الله تعالى عنه من جملتهم، وطينته من طينتهم، وما تقدّم منه في التواضع والانكسار دليل على التحقيق في هـذا المجد والفخار كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك.

فنسأل الله تبارك وتعالى أن يسلك بنا أحسن المسالك. ثم دعا وسأل أن لا يزال شمله مجتمعا بهم في الله تعالى، وذنبه مغفورا، ونحن نسأله أيضا إتمام الصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار خير من أوفى ومن نذر، ومن أكرَمَ الجار، وعلى آله وصحبه السادة الأبرار والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم القرار، وهذا الرقم لمن تعطش ليله في معاني هذه الأبيات، وإلا فنحن معترفون بالعجز والتقصير عن معانيها وإنما الأعمال بالنيات، والله تبارك وتعالى أعلم.



تخميس قصيدة (ما لذة العيش) للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي محمد بن علي الحاتمي الطائي المالكي

يَا طالِباً مِن لَذاذاتِ الدُّنَا وَطَرا إذا أردتَّ جميع الخَير فيكَ يُرى
المُستشارُ أمينٌ فاسمَع الخَبرا **(ما لَذَّةُ العَيشِ إلا صُحبة الفُقَرا)**
(هُم السَّلاطِينُ والسَّاداتُ والأمَرا)

قَومٌ رَضُوا بيَسِيرٍ مِن مَلابسِهم والقُوتِ لا تخطُر الدنيا بهاجِسِهم
صُدورهُم خالِياتٍ مِن وسَاوِسِهم **(فاصْحِبهُموا وتَأدَّبْ في مَجالِسِهم)**
(وخَلِّ حَظَّكَ مهْمَا قَدَّمُوك وَرَا)

اسْلُك طريقَهموا إنْ كُنتَ تابِعهُم واتْرُك دعَاويكَ واحْذَرْ أن تراجعهم
فِيما يُريدونه واقصُد منافِعهُم **(واستَغْنِم الوقتَ واحضُر دائماً معهم)**
(واعلم بأنَّ الرِّضا يَختَصُّ من حَضَرا)

كُنْ راضِياً بِهمُوا تَسْمُ بهم وتَصِلْ إن أثبتُوكَ أَقِمْ أو إنْ محَوكَ فَزُل
وإنْ أجاعوكَ جُعْ أو أطعَمُوك فكُلْ **(ولازِمِ الصَّمتَ إلا إن سُئلتَ فقُلْ)**
(لا عِلْمَ عِندي وكنْ بالجَهل مَستَتِرا)

ولا تكُن لعُيوبِ الناس مُنتقِدا وإن يَكن ظاهِرا بين الوجود بدا
وانظُرْ بعَينِ كَمَالٍ لا تُعِبْ أحَدا **(ولا تَرَ العَيبَ إلا فيكَ مُعتقِدا)**
(عَيباً بدا بيِّناً لكنه اسْتَترا)

تنَلْ بذلِكَ ما تَرجُوه من أربِ والنفسُ ذَلِّلْ لهم ذُلاً بلا رِيَبِ
بلْ كلَّ ذلك ذُلٌّ نابَ عن أدبِ (**وحُطَّ رأسكَ واستغفِر بلا سبب**)
(**وقُمْ على قَدَمِ الإنصافِ مُعتذِرا**)

إن شئتَ منهم بريْقاً للطَّريق تشُمْ عن كلِّ ما يَكرهُوهُ مِن فِعالكَ ذُم
والنفسُ منكَ على حُسنِ الفِعالِ أدِم (**وإنْ بَدا منكَ عَيبٌ فاعتَرفْ وأقِمْ**)
(**وَجْهَ اعتذاركَ عمَّا فيكَ مِنكَ جَرى**)

لُهم تَملَّقْ وقُلْ داوُوُ بِصُلحِكُمُوا بمَرْهَمِ العَفْوِ مِنكمْ داء جُرحِكُمُوا
أنا المُسِيءُ هَبُوا لي مَحْضَ نِصْحِكُمُوا (**وقُلْ عُبيدكمُوا أولى بِصَفحِكُمُوا**)
(**فسَامِحُوا وخُذوا بالرِّفْقِ يا فقَرا**)

لا تَخْشَ مِنهم إذا أذنَبتَ هِمَّتَهُم أسنَى وأعظَمُ أن تُردِيكَ عِشْرَتهُم
ليسُوا جَبَابِرةٌ تُؤذِيكَ سَطْوَتهُم (**هُم بالتفضُّلِ أولَى وهُو شِيمَتهُم**)
(**فلا تخَفْ دَرَكاً مِنهم ولا ضَرَرا**)

إذا أردتَّ بِهم تَسْلُكْ طَريقَ هُدى كُنْ في الذي يَطلُبُوه مِنكَ مُجتهِدا
في نُور يومِكَ واحذَرْ أن تقُول غداً (**وبالتفتّي علَى الإخوان جُدْ أبَدا**)
(**حِسّاً ومَعنىً وغُضَّ الطَّرفَ إن عَثَرَا**)

اصْدُقْهُم الحَق لا تستعمِل الدّنَسَا لأنهم أهْلُ صِدقٍ سادَةٌ رُؤَسَا
واسمَح لِكلِّ امْرِئٍ مِنهم إليكَ أسَا (**ورَاقِبِ الشيخَ فِي أحْوالِهِ فَعَسَى**)
(**يَرى عَليكَ مِن استِحْسَانِهِ أثَرَا**)

وأسْألهُ دَعوَتَهُ[1] تحظَ بِدَعوَتِهِ تنَلْ بذَلكَ مَا ترجُو ببَركَتِهِ
وحَسِّنْ الظَّنَّ واعْرفْ حَقَّ حُرمَتِهِ **(وقَدِّمِ الجِدَّ وانهَضْ عندَ خِدْمَتِهِ)**
(عَسَاهُ يَرضَى وَحَاذِرْ أن تكُنْ ضَجِرا)

واحْفَظْ وصِيَّتَهُ زِدْ مِن رِعَايَتِهِ ولَبِّهِ إنْ دَعَا فَوراً لِسَاعَتِهِ
وغُضَّ صَوتكَ بالنَّجْوى لِطاعَتِهِ **(ففِي رضَاهُ رِضَا البَاري وطَاعَتِهِ)**
(يَرضَى عليكَ فكُنْ مِن تركِهَا حَذِرا)

والزَمْ بمَنْ نفسُهُ نفسٌ مُسَايسَةٌ في ذا الزَّمانِ فإنَّ النَّفسَ آيسَةٌ
منهُم وحِرفتُهُم في النَّاسِ باخِسَةٌ **(واعْلَم بأنَّ طَرِيقَ القَومِ دَارسَةٌ)**
(وحَالُ مَنْ يَدَّعِيهَا اليومَ كيفَ تَرَى)

يَحِقُّ لي إنْ نَأَوْا عَني لألفتِهِم ألازمُ الحُزنَ ممَّا بيْ لِفُرقَتِهِم
على انقِطاعِي عنهُم بَعدَ صُحبتِهِم **(مَتى أراهُم وأنَّى لِي برُؤيَتِهِم)**
(أو تسمَعُ الأُذُنُ مِنِّي عنْهُم خبَرَا)

تخَلُّفِي مَانِعِي مِن أنْ ألائِمُهُم منهُم أتيتُ فلُمنِي لستُ لائِمُهُم
يا ربِّ هَبْ لي صَلاحاً كي أنَادِمُهُم **(مَن لِي وأنَّى لِمِثلي أن يُزاحِمُهم)**
(على مَوارِدٍ لمْ أُلْفِ بها كَدَرَا)

جَلَّتْ عن الوصْفِ أن تحصَى مآثِرهُم عَلى البَواطِنِ قدْ دَلَّتْ ظَواهِرهُم
بطَاعةِ الله في الدنيا مفَاخِرهُم **(أحِبُّهم وأُدارِيهِم وأوثِرهُم)**
(بمُهجَتي وخُصُوصاً مِنهمْ نفَرَا)

---

(١) في بعض النسخ المطبوعة: واسأله دعوى كي تُحظى بدعوته.

قَومٌ عَلى الخَلقِ بالطَّاعاتِ قدْ رُؤِسُوا   منهُم جَلِيسهُم الآدابَ يَقْتَبسُ

ومَن تخَلَّفَ عنهُم حَظُّهُ التعِسُ   **(قَومٌ كِرامُ السَّجَايَا حَيثمَا جَلسُوا)**

(يبقَى المكانُ عَلى آثَارِهم عَطِرا)

فِهمْ بِهِم لا تفَارِقهُم وَزِدْ شَغَفا   وإن تخَلَّفتَ عنهُم فانتحِب أسَفَا

عصَابةٌ بِهِم يُكسَى الفتى شَرَفَا   **(يَهدِي التصَوفُ مِن أخْلاقهِم طَرَفا)**

(حُسْنُ التآلُفِ منهُم رَاقني نظَرا)

جَرَرتُ ذَيلَ افتِخَاري فِي الهَوى بِهِمُوا   لَمَّا رضُوني عُبَيداً فِي الهَوى لهُمُوا

وحَقِّهم في هَواهم لسْتُ أنسَهُمُ   **(هُم أهلُ وُدِّي وأحبَابي الذينَ هُمُ)**

(مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيُول العِزِ مُفتخِرا)

قطَّعتُ فِي النظمِ قلبِي فِي الهَوى قطْعا   وقد توسَّلتُ للمَولى بِهِم طَمعا

أن يغفِرَ اللهُ لِي والمسلمين معا   **(لا زالَ شَملي بِهِم في اللهِ مُجتمِعا)**

(وذنْبُنا فيهِ مَغفُورا ومغتفَرا)

يا كلَّ مَن ضَمَّه النادِي بمَجْلِسِنا   أدعُ الإلهَ بِهِم يمحُو الذنوبَ لنَا

وادعُ لِمَنْ خَمَّسَ الأصْلَ الذي حَسُنَا   **(ثمَّ الصَّلاةُ عَلى المُختارِ سَيِّدِنَا)**

(مُحَمَّدٍ خيرُ مَن أوفَى ومَن نَذرَا)

تمّت وبالخير عمّت



محتوى الكتاب

الموضـــــــوع.. | الصفحة

كلمة المركز ٥

مقدمة المعتني بالكتاب ٩

توصيف المخطوطات ١٣

ترجمة الشيخ العارف شعيب أبي مدين التلمساني رحمه الله تعالى ٢٣

ترجمة الشيخ العارف علي بن عبد الله باراس رحمه الله تعالى ٣٣

قصيدة الشيخ شعيب أبي مدين ٥٩

مقدمة المؤلف ٦١

لذة العيش في صحبة الفقراء ٦٦

كيف يكون الفقراء سلاطين وسادات وأمراء.................................... ٦٩

ضرورة اصطحاب الشيخ والتأدب معه... ٧١

المنازل التي ينزل فيها الشيخ المريد... ٧٣

استغنام الحضور مع الأشياخ وفوائده ٧٤

كيف يظفر المريد بالرضا والمعية ٧٥

فوائد ملازمة الصمت والأدب عند مجالسة الشيوخ ٧٧

بيان حقيقة التواضع ٨١

المريد دائم التوبة والاستغفار ٨٣

الذنب كفارته التوبة والاعتذار ٨٥

أحسن ما يتلطف به المعتذر ٨٦

خطاب الاعتذار كيف يكون.. ٨٦
من شيم الشيوخ قبول المعاذير ٨٨
الفتوّة أشرف أحوال المعاملات مع الخلق ٨٩
فتوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ٨٩
فتوّة المشايخ ٩١
كليات أخلاق الفتوّة ٩٢
حال المريد مع الشيخ ٩٣
ثمرة حسن المراقبة لأحوال الشيخ ٩٤
أول مبدأ المريد الجد والتشمير ٩٦
صفات طريق القوم ٩٨
طريق السالكين وأحوالهم وأذواقهم ١٠١
التعلّق بالأولياء والأدب معهم ١٠٢
اعتراف الشيخ وأدبه مع القوم ١٠٥
المحبة أعظم رابطة بين المحب والمحبوب ١٠٥
صفات الشيخ الكامل ١٠٨
صفات القوم وأحوالهم ١٠٩
صفات أهل التصوف ١١٠
أهل الود هم أهل التصوف ١١٢
الاجتماع بالكمّل غنمٌ كله.. ١١٥
الخاتمة في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١١٦

الخاتمة وفيها إجمال ما تقدم من أحوال القوم وآدابهم ١١٨
آداب المريد مع الشيخ في المقال والفعال ١٢١
مصادر ومراجع التحقيق ١٢٧
كتاب التوفيق في آداب الطريق ١٣٥
المقدمة المعتني بالكتاب ١٣٧
نموذج من المخطوطات المستعان بها في ضبط النص ١٤١
كتاب التوفيق في آداب الطريق ١٤٣
لذة الطريق في صحبة أهل التحقيق ١٤٥
أدب الصحبة ١٤٦
الرضا في الحضور ١٤٦
التستر بالجهل ١٤٧
التحقق بأوصاف العبودية ١٤٨
دوام شهود تقصيرك ١٤٩
طلب الصفح ١٥٠
بذل الأموال وغض الطرف عن العثرات ١٥٢
مراقبة الشيخ في أحواله ١٥٤
الإخلاص في خدمة الشيخ ١٥٥
تشوّق السالكين إلى طريق أهل اليقين ١٥٦
من خصال الكرم ١٥٩
ملحق: تخميس قصيدة (لذة العيش) للشيخ ابن عربي المالكي ١٦١
محتوى الكتاب ١٦٥


دار الفقيه